الكلمة ليست سلاح جريمة

إبراهيم خالد

إسم الـــــكتـاب : الكلمة ليست سلاح جريمة

إسم الكـــــاتـــب : ابراهيم خالد

تصميم الغلاف : عبير محمد

تدقيق لـــــغـــوي : عبدالمعز صفوت

رقـــــم إيـــــــداع : ٢٠٢٠/٦٧٣٦

ترقيم دولـــــــي: ٤-٨١-٦٥٩٤-٩٧٧-٩٧٨

شارك سطورك مع العالم

الكلمة ليست سلاح جريمة

إبراهيم خالد

The Writer Operation

شارك سطورك مع العالم

إهداء

•إلى أسرتي الكريمة: أبي الذي طالما شجعني على القراءة وناقشني فيما أقرأ منذ صغري حتى صارت القراءة عشقًا؛ أمي التي حرصت كل الحرص على تعليمي بأفضل ما في الإمكان حتى صرت ما أنا عليه؛ أخي الذي آمن بي ودعمني معنويًّا ثم ماديًّا من بداية الرواية غير عابئ بشيءٍ سوى أن تُنشر الرواية, وأختايَ العزيزتان الغاليتان...

•إلى مَن زرع فيَّ حبَّ الكتابة, وعلمني الكثير في وقتٍ لم أعلم فيه شيئًا, فمهَّد لي الطريق أشقُّه من بعد, ولم يتركني فيه بتوجيهاته وأفكاره ونقده البنَّاء, أستاذي القدير أ/هاني عطيه عجاج.

•إلى من دفعتني دفعًا لكتابة الرواية بعد أن كنتُ أكتب لنفسي فقط, ووضعت في هذه الرواية قدرًا من الجهد والأفكار والوقت ما يجعلني أراها شريكتي فيها, إعلامية المستقبل علياء حشمت قرطام.

•وفي النهاية.. إلى أصدقائي الذين أعطوني اهتمامًا وحبًّا يفوق ما أستحق..

أشكركم جميعًا من كل قلبي, فلكم كلُّ الفضل..

الباب
الأول..

١

البرد قارسٌ لا يُحتمل، رياح ليلة شتاءٍ تعصف بقوةٍ، محملةٌ بقطرات ماءٍ على حافة التجمُّد، تنذرُ بسيولٍ من المطر تحشد قوَّتها لتغرق الشوارع بما فيها، القمر يطلُّ بين الحين والآخرعلى المدينة من فجواتٍ بين السحب الكثيفة، الشوارع خلت من كل أشكال الحياة التي اختبأت من البرد فسكنت إلا من صوت الرِّياح تضرب البيوت المتراصَّة والسيارات المركونة على جانب الطريق وأعمدة الإنارة المتباعدة، أحكم لفَّ كوفيته على رقبته وفمه وأنفه، بينما يسير بثقته المعتادة وهدوئه؛ فهو لم يكن ممن يخشون خواء الشوارع في ليالي الشتاء ولا كان ممن يكرهون برده، ينتقل من بقعة نورٍ أسفل أحد الأعمدة إلى الأخرى حتى وصل إلى واجهة العيادة الزجاجية المضيئة، فدفع الباب ودخل دون تردُّدٍ.

الدفء هو أول ما شعر به عندما انغلق الباب تلقائيًا وراءه، ألقى نظرةً على المكان؛ فشعر براحةٍ تتسلل إليه دون عناءٍ، لم تكن قاعة الانتظار في تلك العيادة كغيرها؛ فعوضًا عن المقاعد المعدنيَّة المعتادة كانت هناك أريكتان فخمتان قماشهما رماديُّ اللون بخطوطٍ سوداء تزيِّنه، وثلاثة مقاعدَ كبيرةٍ بذات الذوق تحيط طاولةً خشبيَّةً بنيَّةً داكنٌ لونها، عليها طبق فخارٍ

فوقه أحجارٌ ملونةٌ ذهبيةٌ تعكس ضوءًا أصفر خافتًا من مصباحٍ قديم الطراز معلقٍ في السقف.. وعوضًا عن حوائط بيضاء متسخةٍ، كانت الحوائط مطلاةً باللون الرملي المطابق للون الأثاث، مطعمٌ بنقشةٍ ذهبيةٍ داكنةٍ بسيطة تزيد من فخامته.. وعوضًا عن مكتب استقبال معدنيٍّ قديمٍ صدئٍ، كان مكتب الاستقبال خشبه مزخرفٌ مزينٌ بمصباحٍ له غطاءٌ بنفس لون الأثاث، وأقلامٌ متراصةٌ وبعض الأوراق المرتَّبة.. وعوضًا عن ممرَّضٍ بسيطٍ الشكل والملبس، كان موظفُ الاستقبال وسيمًا شعره مصففٌ بعناية، لحيته قصيرةٌ شديدة السواد، يجلس ببدلة سوداء وربطة عنقٍ زرقاء يتفحص بعض الأوراق, ما إن دخل الرجل حتى قام من مقعده بابتسامةٍ عريضة تزيُّن وجهه، وظلَّ واقفًا حتى وصل الرجل إليه فصافحه بحرارةٍ كأنه يعرفه منذ زمن, ثم قال بصوتٍ وقورٍ:

- شرَّفت العيادة يا فندم.. حضرتك عندك ميعاد؟

بدأ الدفء الزائد يزعجه، حتى أنه أحسَّ بأنَّ العرق على وشك شقِّ طريقه إلى جبينه العريض، فأزال غطاء رأسه بيده وكوفيته بالأخرى، وأخذ يطبقهم بعضهم فوق بعض بعنايةٍ بالغة وكأنهما أغلى ما يملك, شعر الممرض بأنَّ الرجل لم يسمع سؤاله؛ بل هو لا يراه من الأساس!.. حتى أتمَّ الرجل مهمته التي أعطاها اهتمامًا يفوق قدرها، ثم نظر إلى الممرض

أخيرًا بعينين واسعتين ثاقبتين, وقال بصوتٍ عميقٍ وهدوءٍ نابعٍ من أعماقه:

- آه.. باسم (علاء أنور)

لم يخفَ على الممرِّض أنه يتعامل مع شخصٍ مختلف، يعطي كل شيءٍ حقَّه ووقته واهتمامه الكامل, لا يعرف لمَر لكنه شعر بأنه معجبٌ بالرجل وجاذبيته الخاصة, وفي نفس الوقت خاف ثقته وهدوءه، ما كانت إلا لحظاتٍ حتى أفاق من شروده ليجد (علاء) مازال يحدِّق في عينيه مباشرةً، فتمتم في توتر:

-لحظة واحدة يا فندم!

و أخذ يقلِّب في الأوراق التي أمامه حتى توقَّف عند واحدةٍ منها، ثم قال:

-تمام يافندم.. تقدر تستريَّح، فاضل على ميعاد حضرتك عشر دقائق

ابتسم له الرجل ابتسامةً فاترةً زادت من قلقه، قبل أن يستدير و يتجه إلى مكان الانتظار المقابل للمكتب بخطواتٍ واسعةٍ ثابتةٍ..لامرت العشر دقائق طويلة على (محمود) –ممرِّض الاستقبال- وهو يراقب (علاء أنور) جالسًا بلا حراك مطلقًا، واضعًا كعبه على ركبته في كياسةٍ، يحدِّق في غطاء رأسه وكوفيته اللذان وضعهما أمامه على الطاولة، لم يعرف (محمود) إن كان (علاء) شاردًا ، فماذا قد يشغل عقل رجل كهذا؟! قاطع أفكاره صوت

الباب المؤدي إلى غرفة الطبيبة وهو يفتح؛ نظر الرجلان في وقتٍ واحدٍ دون تفكير لتستقبل أنظارهما سيدةٌ متوسطة الجمال تبدو وكأنها على وشك الانفجار بكاءً؛ استدار (علاء) مجددًا لينظر بعيدًا بحدةٍ, لم تتح المرأة الفرصة لدموعها لتفسد (مكياجها) المضبوط أمامهم، أسرعت من الباب إلى باب الخروج من العيادة دون التفوُّه بكلمةٍ أو النظر لأحدٍ أو لشيءٍ سوى أمامها مباشرةً.

نظر الرجلان لبعضهما في نفس الوقت فور انغلاق الباب، قال (علاء) بنبرةٍ ساخرةٍ:

- انتم متعودين تخرَّجوا الناس كلها مبسوطين كده من عندكم؟!

ابتسم (محمود) ببلاهةٍ وتوترٌ واضح على وجهه وردَّ قائلًا:

- ساعات الناس مابتستحملش رأي الدكتورة.. هي في انتظار حضرتك دلوقتي، اتفضَّل.

اتكأ (علاء) على ركبتيه وقام ببطء، أخذ أشياءه الموضوعة على الطاولة، ثم توجَّه دخولًا إلى الغرفة حيث الطبيبة تنتظر، أغلق الباب وراءه فأفلت (محمود) تنهيدةً مستريحة، وجلس يرتب أوراقه وهو لا يعلم لماذا تأثَّر بحضور(علاء) لهذه الدرجة!.

لم تختلف الغرفة الداخلية عن باقي العيادة كثيرًا، رائحتها دافئةٌ كالبسكويت المخبوز حديثًا، صغيرة أثاثها قليل، مجرد مكتبٍ بنيٍّ بسيط حديث الطراز أمام الباب مباشرةً, مقعدٌ كبير وثير أمامه، طاولةٌ مستديرة صغيرة بينهما, ومرآةٌ مزينة بمصابيح كهربائيةٍ صغيرةٍ موزعةٌ على أطرافها في الركن البعيد من الغرفة على يمينه.

جلست على مقعدٍ يطابق المقعد الوفير أمام مكتبها منكبةً على بعض الأوراق تقرأها دون أن تلتفت إليه، لا يستطيع تمييز ملامحها؛ فشعرها الأسود المنسدل أخفى جانب وجهها، وقف (علاء) يحدِّق بها دون النطق بكلمةٍ، ألقت نظرةً خاطفةً من وراء شعرها فوجدته لا يزال واقفًا عند الباب، فالتفتت إليه أخيرًا وهي تبتسم و قالت:

- واقف عندك ليه؟! معلش الشغل كان كتير النهارده، وحاجات كتير محتاجة تترتب

ثم أشارت إلى مقعد الزائر المقابل لها في دعوةٍ له بالجلوس، سار (علاء) نحو مقعد الزائرين دون التفوُّه بكلمةٍ ولا ردَّ الابتسامة بمثلها على أقل تقدير، وصل إلى المقعد, وضع غطاء رأسه وكوفيته على الطاولة، وجلس جلسته الهادئة يحدِّق بها.

****

٢

ألقى (أحمد) نظرةً أخيرة على مظهره، عدَّل من معطفه وقميصه، أخذ عطره المفضَّل وبخَّ منه على عنقه وصدره ، مرَّر يده على شعره القصير الممشَّط للوراء، انزعج بعض الشيء من الثعلبة التي أصابته، ومن كثافة شعره التي ظلَّت تقل في السنوات الأخيرة منذ تخطَّى السابعة والعشرين، ولكنه سرعان ما استعاد ثقته بنفسه؛ فابتسم وهو يأخذ ساعته الفضية المفضلة ويرتديها.

جلس على المقعد الأقرب للباب يربط حذاءه، نظر لأخيه بطرف عينه ليجده لايزال يجلس جلسته المعتادة، يحدِّق في التلفاز ببلاهةٍ، الحزن لايخفي عن ملامح وجهه المتجهمة، تنهَّد (أحمد) في ضيقٍ كما يفعل كلما رأى أخاه في تلك الحالة، ولم يخفَ عليه أنها تتزايد في الآونة الأخيرة، قال بصوتٍ عالٍ لينتشل أخاه من شروده:

- (تامر)... ماتقوم تلبس وتيجي معايا، (نيرمين) نفسها تشوفك يابني وصحابها لُطاف.. ومُزز.. هتتبسط!.

ابتسم ابتسامته الساخرة المعتادة، ولكنها لم تدم بعد أن تلقَّى كلمات

أخيه باهتةً:

- فاكس.. فاكس!!.

- ليه يابني؟!

- علشان معرفش حد ومبحبش أبقى تقيل على حد

- طب ما أنت تيجي وهتعرفهم، وبعدين تقيل ليه مش كل شوية هقول لك إنك لذيذ وشكلك حلو!!

لم تكن تلك مجاملةً من أخٍ لأخيه؛ فدائمًا ما رأى (أحمد) أخاه وسيمًا، لحيته السوداء الكثيفة، وطوله الفارع، وجسده النحيل الرشيق، لم يكن من عارضي الأزياء في جماله، ولكن طلَّته كانت قويةً وملامحه مصرية رجولية، لا ينقصه سوى الاهتمام والثقة وبعض التهوُّر والاندفاع!.

نظر (تامر) إلى (أحمد) أخيرًا، لايزال الضيق يعتلي وجهه، وقال :

- ياعم أنت عارف إني مش هرتاح كده.. بس سلم لي عليها لحد ما أشوفها، وبعدين علشان (ميار) ماتزعلش.

- يادي ميار!.

قالها (أحمد) في ضيقٍ واضحٍ وأكمل:

- هو فيه حاجة بينك وبين (ميار)؟!

- لأ.. بس هيبقى فيه، أنا بس مش عايز أتسرَّع علشان مضايقهاش.. بس مش معنى كده إني أخرج مع بنات

- يا ابني تضايقها إيه دي بتستغلك! و بعدين ما (ميار) نفسها بتخرج مع ولاد

- أحمد.. ماتتكلمش عنها كده! مش كل ما أحكي لك حاجة تستغلها وتظيط!! و بعدين هي بتخرج مع صحابها وإخواتها من وهما صغيرين

- آه.. واخدين على إنهم يستحموا في بانيو واحد ملط ..عادي بقى بالمرة!!

- أنت بتقول إيه يا أحمد؟! هتستهبل؟!

- ياعم لا هاستهبل ولا هاتكلم، أنت حر، بس (ميار) مش كويسة وأنا مش عايز أشوف أخويا متبهدل.. خد خطوة على الأقل بدل ما أنت متعلق كدة وأهو تعرفها أكتر قبل الجد

- لأ.. أنا هعرفها أكتر لما أخطبها، و ماتتكلمش عنها كده تاني

قام أحمد منتفضًا، نظر لأخيه بغضب، صارت فكرة خطبة أخيه لـ (ميار) تؤرِّقه، فهو يحب أخاه ويحب نقاءه وعفويته، ولكنه يكره سذاجته,

تزاحمت الكلمات في عقله، شعر بها موجعةً لأخيه إن خرجت كما هي، فاستدار واتَّجه إلى باب المنزل دون التفوُّه بكلمةٍ أخرى، آخر ما يراه أخوه جالسًا يحدِّق فيه بملامح حزينة وعيونٍ مُنكسرةٍ.

* * * *

ودعوا صديقات (نيرمين)، ثم انتقلوا من الطاولة الكبيرة في منتصف الكافيه إلى أخرى أصغر بجوار الواجهة الزجاج المطلة على الشارع الخاوي بالخارج، تأمَّل القمر بين السحب الكثيفة في السماء، أخرج سيجارةً وقلَّبها بين أصابعه، وضعها في فمه, ثم أشعلها بقداحته الذهبية المزخرفة، و قبَّلها بشغفٍ ليتسلل دخانها إلى رئتيه، يداعبها.. يعلم أنها تقتله ولكنه لا يستطيع عدم تتويج لحظات راحته بدخانها.

علمت (نيرمين) ما تعنيه تلك السيجارة وتلك النظرة وذاك الشرود، لو كانت فتاةً أخرى لظنته يتجاهلها, ولكن ليست هي، فهي تحفظ كل تفاصيله عن ظهر قلب، تقرأه وكأنه كتابٌ مفتوحٌ بسيطٌ وجميل، تدعه لشروده بينما تتأمله في صمت، تلمع عيناها إعجابًا به وبكل تفاصيله، تعلم أنه يشعل سيجارته بهذه الطريقة عندما يكون سعيدًا فتدعه لعالمه وتشاهده؛ فالنظر إليه يكفيها, دفعتها مشاعرها فالتقطت يده تحتضنها بينما تسأله:

-سيجارة الروقان؟!!

التفتَ إليها يستعيد تركيزه, ابتسم ما إن تلاقت عيناهما، لم تكن ابتسامته الساخرة التي لازمته طوال الوقت, ابتسامة لا تخرج إلا لها... ولا لغيرها.. ابتسامةٌ أبسط ما يصفها هو الرضا والسكون, يطمئنها بها, ردَّ:

- حفظاني كالعادة!!

- عيب عليك بقى، كدة مابقيتش محتاجة أسألك اتبسطت ولا لأ، أصلًا كده كده مش محتاجة أسألك، طالما أنا معاك!!..

قالتها وهي ترفع كتفها بثقةٍ.. تداعبه.

أخذ (أحمد) نفسًا عميقًا من سيجارته، أطلقه في ضيقٍ مصطنعٍ وهو يهزُّ رأسه ويقول:

- طمِّنتك زيادة عن اللزوم!

ثم التفت بثقةٍ وأكمل:

-بس أنا لو مكانك ما اطمِّنش أوي كده، منة صاحبتك جامدة وكانت هتاكلني بعينيها النهارده!..

كورت (نيرمين) يدها الصغيرة ولكمته بسرعةٍ وقوةٍ لا تناسب حجمها؛ فقد كانت نحيلة الأذرع عظام كتفيها بارزة، قصيرةً لا يتجاوز طولها كتفه، أو لعلَّه هو الذي كان طويلًا متجاوز المتر والثمنمائة سم، بنيته قويةٌ رغم دهونٍ موزعةٍ في جسده ومتركزة في بطنه, حاول التظاهر بأنه لم يتأثر و قال:

- فرفورة كالعادة.. وبرضه (منة) جامدة!!.

تركت يده ونظرت بعيدًا عن ابتسامته المستفزَّة؛ فأسرع هو بإمساك يدها وهو يقول:

-بس أنا بحبك!

كان يعلم تأثير كلامه عليها, ابتسمت برقةٍ طفوليةٍ وعادت تنظر إليه بعينيها الواسعتين البنيتين, ردَّت بصوتها الناعم:

-وأنا كمان بحبك.. بس برضه غلس أوي!!.

-عارف.. كالعادة.. عايز أحكي لك حاجة مهمة.

رأت ملامحه تنقلب إلى الجدية، تعلم متي يريد أن يتحدث في شيءٍ يشغله بحق، تتحول ملامحها الرقيقة هي الأخرى للجدية قدر ما تسمح لها أنفها الصغيرة الدقيقة وشفتاها الوردية الممتلئة والغمَّازات التي تزين وجنتيها، وقالت:

- قول يا حبيبي..

-(تامر) تاني.. اتخانقت معاه قبل ما انزل، وكنت غشيم.. بس حوار (ميار) ده مابقتش قادر أستحمله، هي عارفة إنه بيحبها وخايف يقول، وهي مستغلاه بنت الكلب دي!..

-اهدى بس كده، إيه اللي حصل؟ اتخانقتوا جامد يعني؟

قصَّ عليها (أحمد) ما دار بينه وبين أخيه، رأى ملامحها تنتقل بين الجدية والتعاطف والاندهاش؛ حتي قالت بعد أن انتهى:

-ليه بس كدة؟.. مش قُلنا هنكلمه بالراحة ونقنعه ياخد خطوة أو يبعد؟

- اللي حصل بقى

- طيب اهدى بس، مسيره هيعقل ويشوفها على حقيقتها

- المشكلة إنه منعزل ومعندوش أي ثقة في نفسه، ومعلق كل حياته عليها وهي هتسيبه وهيكتئب ويبهدلني معاه.

- لا.. إن شاء الله مش هيكتئب ولا حاجة، حاول انت بس تفهِّمه.. وبالراحة

-هحاول

- وابقى إدي له شوية ثقة من اللي قرفتني بيها دي!!.

قالتها بشقاوتها المعتادة كي تجعله يبتسم؛ فهي في الحقيقة لم تعرف حلًا لمشكلة أخيه، بل هي أيضًا خافت على (تامر) فكانت تعرف مصير مثيله مع مثيل (ميار), لكنها لم تمتلك سوى جعل (أحمد) يبتسم وينسى هم أخيه الذي سينفجر عاجلًا أم آجلًا، وبالفعل لم يستطع (أحمد) مقاومة روحها

كالعادة، نسي همه وابتسم, مرَّر يده بين خصلات شعرها البنيِّ اللامع وقال لها في حنانٍ وجديَّة:

-انتي عارفة إن أنا بكره أقولها كتير.. بس للأسف.. بحبك!.

ابتسمت في رقَّةٍ وهي تراه يقولها رغم طباعه القاسية، وقالت:

- وغصب عنك هتفضل تقولها!! بس وأنا كمان بحبك!.

****

أحبَّت جولاتهم في سيارته بعد كل مقابلة، تجلس بجواره وهو يقود بتهور، يسبُّ، يشعل سيجارةً تلو الأخرى، ولكنها لم تهتم قط بقيادته، ولم تعر الطريق انتباهها، فعيناها مثبتةٌ عليه، يداها تحتضنان يده اليمنى، وأذناها تستمع إلى أغانيها الرومانسية المفضلة لتكمل الأجواء، قبضت يده بقوةٍ على يدها لتعتصرها؛ فجأةً جسدها الهزيل اندفع إلى الأمام حتى ارتطم بتابلوه السيارة، صوت صرير العجلات يصم أذنيها، حتى ارتطمت السيارة بشيءٍ لا تراه بعد، ارتجَّت لتصطدم بضعة صدماتٍ أخرى، لم يكن عقلها يستوعب ما يحدث بعد، استفاقت من صدمتها على صوت باب السيارة يُفتح، فتحت عينيها لتجد (أحمد) يترجل من السيارة دون حتى الاطمئنان عليها ويصرخ بعصبية :

- فيه حد يدوس فرامل فجأة كده يا بني آدم؟!

لم يكد الرجل الآخر ينطق، وإذ بـ (أحمد) يلكمه لكمةً عنيفة على فكه، ترنَّح الرجل إلى الوراء، فأسرع (أحمد) وأمسك قميص الرجل بيده، واليد الأخرى تلكم بلا هوادةٍ ولا شفقة، الدماء تتطاير من فك الرجل وأسنانه المنكسرة حتى سقط على الأرض, ولكن هذا لم يجعل (أحمد) يتوقف عن لكمه، وكأنه تحول إلى آلةٍ لا ترى أنَّ مَن أمامها على حافة الموت؛ فتحت (نيرمين) باب السيارة، خرجت تترنح، تشعر بألمٍ في ذراعها وضلوعها ورأسها، استجمعت قواها، وصرخت مناديةً مستعطفة :

- أحمد !!.. كفاية بتعمل إيه، حرام عليك!!..

ركضت إليه بأسرع ما أمكنها، تجاهلت ألم ذراعها، قبضت على قميص (أحمد) بيديها، وسحبت بكل قوتها وهي تصرخ وتبكي، تصرخ من الألم، و تبكي من الخوف والصدمة؛ حتى أفاق (أحمد) من تحوله فترك الرجل وانصاع إليها.

تجمع بضعة رجال كانوا قريبين كفايةً لرؤية ما حدث، أبعد اثنان منهما (أحمد)، وتفقَّد ثلاثة آخرين الرجل الملقى على الأرض، و(نيرمين) في المنتصف تنظر إلى (أحمد) وهو يتنفس بقوةٍ كثور هائجٍ، يمسك به الرجلان كي لا يعود للرجل فيقتله، ثم تنظر إلى الرجل الملقى على الأرض

بهلعٍ، تعلم ما سيحدث لو أصابه شيءٌ، يكاد قلبها يتوقف، حتى تحرك الرجل وقام مستندًا على الثلاثة رجال الآخرين، وجهه مغطىً بالدماء، يترنح ويتأوه ويسب ويتوعد لحبيبها بالقتل .

مرت عليها الساعة التالية ثقيلةً، تشعر بالألم وبالبرد والهلع؛ بينما يتحدث (أحمد) مع الرجل بعد أن هدأ، وحضر رجال الشرطة، اتفقا في النهاية على أن الرجل لن يُصلح سيارة (أحمد)، بل سيأخذ منه مبلغًا من المال كي لا يبلغ عنه بلاغًا رسميًّا، فوافق (أحمد)؛ فقد كان يعلم ما قد يحدث له، كل هذا و(نيرمين) تجلس في السيارة تكتم دمعاتها، تراقب (أحمد) وهو يتحدث لهذا وذاك، دون أن يسألها ما إن كانت بخيرٍ ولو لمرةٍ واحدة!.

انطلق بسيارته في النهاية، أشعل سيجارته يهدئ بها أعصابه، أوقفت (نيرمين) الأغاني، أشاحت بوجهها بعيدًا عنه، تهيم بنظرها في الطريق من الزجاج الجانبي، لا تريد أن تنظر له ولا تريد احتواء يده بين يديها، تشعر بالألم يتزايد في جسدها ولا تقول، وهو لم يسأل.. هو لم يقل شيئًا من الأساس، وهي لا تريد سماع صوته أو الحديث معه؛ فاكتفت بمراقبة أعمدة الإنارة تمر واحدةً تلو الأخرى، تعدهم حتى تصل إلى المنزل حيث يمكنها السماح لدموعها بالانهمار .

لطالما أحبت (أحمد) بجنون، و طالما كرهت هذا الجزء من شخصيته، فهو مثقفٌ متفاهم، هادئ مرح أكثر الوقت، و لكنه عدوانيٌ يتحول وقت غضبه ولا تكاد تعرفه، لم تكن تخاف على نفسها من غضبه فهي تعلم أنَّ يديه لا يمكنها مسَّها بسوءٍ قط، ولكنها كانت تخشى عليه ما قد تفعله يداه تلك وقت الغضب.

****

٣

لم تكن ذات جمالٍ طبيعي لا يقاوم؛ ولكنك تستطيع بسهولةٍ رؤية مجهود مبالغٍ وضعته في مظهرها، بودرةٌ بيضاء تغطي بشرةً باهتة، هالاتٌ سوداء يمكنك رؤيتها رغم محاولةٍ كادت تكون ناجحةً في إخفائها, وكحلٌ يزيِّن عيونًا جريئةً ثاقبة يزيدها جرأةً - أسود كلون شعرها- وشاحٌ صغير من قماشٍ مطرز ملتفٍ حول رقبتها النحيلة بإحكام، وبالطبع قميصٌ وسترة رسمية تستطيع توقع ثمنهما الباهظ من على بعد ميل.. لم تكن بالغة الجمال ولكنها كانت بلا شك من الطبع المتمرد الجريء, والذي أعطاها جاذبيةً خاصةً من نوع آخر..»جاذبية المغامرة».

- حضرتك الأستاذ (علاء أنور)؟

قالتها بصوتها القوي الواثق لتكمل صورة المتمردة في عقله، بادرها بثقته وهدوئه هو الآخر:

- آه

- عرفت عننا إزاي؟

-من النت .

- مممم.. تمام هراجع مع حضرتك شوية حاجات قبل ما نبدأ

««just to make sure

سكتت لبرهةٍ تنتظر ردة فعله، فلم تتلقَ سوى نظرةٍ بلا مشاعر ثم إيماءةٍ أن نعم، فأكملت:

- تمام.. دي مش عيادة علاج نفسي، وأنا مش دكتورة نفسية؛ أنا هنا علشان كل واحد فينا محتاج حد يكون صريح معاه حتى لو هيجرحه, صريح معاه في لبسه في شكله في طريقته في روحه، صريح معاه حبه ولا لأ، صريح معاه حبه في إيه وكِرهه في إيه، والأهم... صريح معاه في إنه هل ممكن يشوفه كحبيب كشخص (attractive)

ولا لأ؟... أنا مش هدي حضرتك حلول، أنا هتكلم معاك وهنعدي بشوية تجارب وبعدين هقولك رأيي، وبس... أرجو إنك تتصرف على طبيعتك..

مجددًا لم تتلق أي رد فعل أوكلمات، بدأت ملامحها الجادة تتحول للتعجب بعض الشيء؛ ولكنها سرعان ماعادت لجديتها, أخرجت ورقةً وقلمًا، كتبت بضعة أشياء عليها, ثم نظرت إلى (علاء) وبدأت تحقيقها:

- أستاذ علاء حضرتك كام سنة ؟

-٣٢.

- متجوز؟

-لأ

- خاطب؟ أو فيه حد في حياتك؟

-آه.

-مع بعض من امتي؟

-٣ سنين.

-جميل، وبتحبها؟

سكت (علاء) قليلًا وهو يقِّلب رأسه يمينًا ويسارًا، فسألته وهي تبتسم:

-سؤال صعب؟!

-لأ خالص.. أنا بحبها جدًا.

- الصعب كان إنك تعترف قدامي؟

- حاجة كده.

- بتحب إيه فيها؟

- كل حاجة.. مافيهاش غلطة.

-ممم.. طيب ممكن تفاصيل أكتر؟

-فهماني كويس.. ذكية.. روحها حلوة.. مش نكدية.. حاجات كتير، بحب تفاصيلها وطريقتها معايا

- جميل جدًا، كان فيه علاقات في حياتك قبل كده ؟

-خمِّني انتي.

كانت تلك أول جملةٍ تخرج من فمه خارج سياق الكلام, وأول ابتسامةٍ ساخرةٍ تراها منه، شعرت بثقته منذ رآته, وشعرت بثقته تتضاعف مع الوقت, ابتسمت في خفوتٍ هي الأخرى وقالت:

-لأ أنا هخمن بس مش دلوقتي.. ماتقلقش التخمين جاي!..

- تلات مرات.

قاطع كلامها بحدةٍ، رأى الانزعاج في ابتسامتها وهي تبهت, أكملت:

-حبيتهم؟

- واحدة آه.. وواحدة لعب عيال.. وواحدة هيصة!

-هيصة؟!.. كلمة قاسية أوي!..

- ليه؟ كنا بنلعب وعارفين إننا بنلعب

-هي كانت عارفة؟!

-طبعًا.. أنا صريح وواضح في الحاجات دي

- حلو، الصراحة حلوة؛ أمَّال أنا فاتحة العيادة دي ليه!

ضحكت في خفةٍ وشقاوةٍ على مزحتها، ولكن مرةً أخرى لم تتلقَ أي ردٍّ منه، حتى ابتسامته الساخرة قد سحبها!.

* * *

انتهي (محمود) من حصر أعمال اليوم ومقارنتها بالمال المرصوص في درج مكتبه، لم يتبقَ سوى المبلغ الذي سيدفعه (علاء أنور) فور خروجه، ولكن ماذا لو خرج غاضبًا كمن سبقته وقرَّر أنه لن يدفع؟ هل سيستطيع (محمود) إيقافه ليأخذ منه ثمن جلسته؟ علم (محمود) فرق الحجم والصحة بينه وبين (علاء) جيدًا؛ فعاد له القلق وعادت له ذكرياته التي زادت من توتره..

تذكَّر يوم جاء شخصٌ فارع الطول قبيح الوجه والملبس، لم يستطع قط نسيان تلك الأنف الغليظة والجبهة العريضة واللحية غير المستوية، وكما تصر الطبيبة دومًا -العميل هو الذي يقرر متى يدفع سواءً قبل أو بعد الجلسة- رغم محاولاته المتكررة لإقناعها بجعل العملاء يدفعون قبل الجلسة كباقي العيادات؛ لم يدفع ذلك الرجل قبل الجلسة ولم يطالبه (محمود) بالمال، ولكنه كان متوترًا كعادته، كما كان متوترًا عندما رأى (علاء أنور)؛ تذكَّر دفعة الرجل له مطيحًا به جانبًا عندما طلب منه ثمن الجلسة وهو مندفع للخروج من العيادة في غضبٍ، وتذكر لكمةً مدوية أفقدته وعيه عندما لحق به في الشارع بالخارج!.. تذكر عندما استعاد وعيه فوجد نفسه ملقىً على الرصيف ينزف دمًا من فمه، والطبيبة تجلس بجواره تحاول إفاقته بعطرها النفاذ، وكأنَّ العطر سيجعل ذلك الألم في فكه ورأسه يختفي!.. حاول بشدةٍ إقناع الطبيبة بأن يقوم العملاء بالدفع قبل الجلسة لا بعدها ولكنها مرة أخرى لم توافق؛ فهي لم ترد أن يشعر العميل بأن الأهم هو المال إن طلبه (محمود) قبل الجلسة..

«خطة في منتهي الذكاء!».. قالها (محمود) وهو يحاول الخفض من حدة توتره.

وضع مرفقيه على المكتب، وألقى رأسه بين يديه في تعب، يومٌ طويل آخر من العمل صباحًا في وظيفته الحكومية الروتينية؛ يذهب بعدها إلى المنزل

ليتناول الغداء مع والدته، ويستريح قليلًا قبل أن يطمئن عليها ويتأكد أنها أخذت أدويتها وأنها تتذكر ميعاد جلسة (الغسيل الكلوي)، ثم ينطلق إلى العيادة ليقضي بها باقي ساعات يومه، ولايزال يجب عليه اصطحاب والدته من المركز إلى البيت بعد عمله، فالجلسة تمتصُّ قوتها وتتركها شاحبةً كالأموات كما تمتص السموم من دمها.. غالبه التعب والنعاس، ألقى نظرةً على ساعة يده الرخيصة، لاتزال أمامه ساعتان من العمل، ولم يكن هناك أحدٌ في مكان الاستقبال، لن يحدث شيءٌ إذا أراح جفنيه قليلًا حتى ينتهي (علاء) من جِلسته، سيسمع الباب يُفتح فيعتدل في جلسته, لن يراه أحدٌ نائمًا, أراح ذراعيه على المكتب وألقى رأسه فوقها, وما كانت إلا دقائق حتى غاص في نومه وأحلامه, نومٌ عميقٌ مليء بالأحلام المتقلبة.. والدته والدم يسحب من جسدها في جلسة (الغسيل الكلوي).. وجهها العجوز المليء بالتجاعيد يشحب شيئًا فشيئًا حتى صارت تشبه الجثة، بجفونٍ لا تقوى على الانفتاح وشفاه متشققة، وجبينٍ مغطىً بالعَرق.. ثم الطبيبة وهي تسأله عن المال الذي جمعه طوال اليوم وتصرخ فيه بأنه سرقه، يقسم لها في هلعٍ أنه كان هناك في الدرج.. يستيقظ بين الحين والآخر على ألم رقبته، يقلِّب رأسه ثم يعود لنومه مستسلمًا لتعبه مرةً أخرى لتعود إليه الأحلام التي لا يميز منها شيئًا سوى مقتطفاتٍ مزعجة..

انطلق هاتفه الجوال يهتز ويرنُّ ليكسر الصمت المطبق على المكان، تقلَّب

في بادئ الأمر ثم بدأ يستيقظ شيئًا فشيئًا، رفع رأسه يشعر وكأنه مازال في حلمٍ من أحلامه، حتى انتشله صوت هاتفه من تيهته، أمسك الهاتف في تعجبٍ، نظر ليجد المتصل رقمًا لا يعرفه، انتابه بعض القلق, ثم ردَّ أخيرًا ليستقبل صوتًا نسائيًا يقول:

-حضرتك الأستاذ (محمود)؟

-أيوه يافندم مين معايا؟

- حضرتك أنا ممرضة من المركز، والدة حضرتك تعبت شوية في نص الجلسة ومحتاجينك حالًا

****

٤

أوقف (أحمد) سيارته أمام المبنى حديث الطراز، بعد «تعالى...تعالى... تعالى»

لا تنتهي من (حسن) السايس، ترجَّل من سيارته يحمل حقيبة الحاسب النقال على كتفه، ليستقبله (حسن) الهزيل القصير باللهجة السوقية ولسانه البطيء الثقيل:

-باشا منور الدنيا والله.. هو إيه اللي حصل للعربية ياباشا؟!

رد عليه (أحمد) بينما يُحكم إغلاق سيارته ويُهندم حلَّته:

-مافيش يا (حسن) خبطة بسيطة امبارح

-طب انت كويس يا باشا؟ لا حول الله يارب!

سار (أحمد) متجاهلًا (حسن) الذي لا يعرف الصمت إلا بعد شيءٍ واحدٍ يعرفه (أحمد) جيدًا، أخرج محفظة نقوده الجلدية وأخذ منها ورقة نقودٍ بخمسة جنيهات، مد يده بها إلى (حسن) الذي يسير وراءه دون التوقف

عن الحديث، فأخذها (حسن) دون ترددٍ، توقف عن مطاردته أخيرًا ونسي ما كان يقول، وشرع يشكر (أحمد) ويدعو له ويطمئنه على سيارته في حراسته.. «كنت فين امبارح وهي بتتخبط يا ابن الفقرية؟!»..

فكر بها (أحمد) وهو يتركه وراءه ليدخل المصعد الكهربائي أخيرًا .

دفع (أحمد) الباب الزجاجي ودخل المكتب، تجاوز المكاتب الخشبية المرصوصة عن يمين و يسار ردهة الاستقبال، تجاهل «صباح الخير يا باشمهندس» هنا وهناك، وجهه عابسٌ جاد، خطواته قوية كطفلٍ باكٍ يدب بقدميه في كل خطوة، رآها بطرف عينه تقف عند مدخل المطبخ على يساره، متكئةً على الحائط تراقبه كبائعة هوىً، لا تنادي عليه ولا تتأثر لحضوره، وفي الوقت ذاته لا تستحي التحديق به أمام الجميع بعينين جريئتين نهمتين، تكاد تغازله هي!.. حتى دخل مكتبه وأغلق الباب الزجاجي وراءه.

التفَّ حول المقاعد الأربعة المحيطة بطاولة مربعة زجاجية ذات أرجلٍ نحاسية مقوسة تحملها، وضع حقيبته على المكتب الزجاجي الكبير في نهاية الغرفة الأخرى، وجلس على المقعد الجلدي الكبير وراء المكتب يقلِّب في هاتفه، اتصل بـ (نيرمين) للمرة العاشرة بعد أن أوصلها أمس، ظل الهاتف يرن دون ردٍّ، يعلم لماذا لا ترد على الهاتف؛ فهي لا تطيقه عندما يفقد أعصابه و يتعارك أمامها..

- يعني كنت أعمل إيه يعني في الغبي ده؟!..

«يلعن أبو شكلِك بقى انتي هتقرفيني انتي كمان!!»..

قالها (أحمد) لنفسه في غضب، وألقى بهاتفه الجوال على الطاولة في يأس.

تتحداه في كل خطوةٍ يطرقع فيها كعبها العالي على أرضية غرفته السيراميك البيضاء المزركشة، تتلوي يمينًا ويسارًا متقصعة في عرضٍ لفستانها الأسود القصير ليكشف عن ساقيها الممشوقتين، وفتحة الصدر الجريئة يطل منها نصف نهديها، عبرت المقاعد لتقف أمام المكتب الزجاجي، جلست على المقعد المعدني المقابل له، وضعت ساقًا على الأخرى غير مكترثةٍ بالفستان المتراجع، أرجعت شعرها الحريري القصير الأسود وراء أذنيها معلنةً عدم خجلها من إظهار تفاصيل وجهها، ولمَر عساها تخجل ووجهها القوي بملامحها الجريئة المتحدية البرية القادرة على اختراق دفاعات أقوى الرجال؟ وسألته بصوتها الناعم الواثق:

-مش هتبطل تتجاهلني كل يوم كده؟! ومالك مبوِّز ليه النهارده؟

أراح (أحمد) ظهره للوراء، مستريحًا في جلسته، وكان العرض الصغير التي قامت به لم يلفت انتباهه؛ رغم الإثارة التي اجتاحت جسده ورغبته لتذوِّق تلك الغزال الجامح؛ فقد علم بداخله جيدًا أنه إن استسلم لرغبته فيها

ستتركه يتجرع من جمالها حتى يدمنها، ستريه ما لايراه مع غيرها؛ جنةٌ بكل معنى الكلمة، ستفسد علاقته بـ (نيرمين)، بل بكل مَن وماحوله، سيكون عبدًا لها.. أسيرًا لسحرها ودلالها وشقاوتها وجرأتها وتحرُّرها؛ ثم ستتركه عندما تطمئن أنه أصبح طوع إشارتها، تمامًا كما فعلت معه من قبل، وها هي تعود بدلالها عندما استقرَّت حياته وأحبَّ (نيرمين)، تتمايل وتتراقص حوله، تمارس كل ألاعيبها عليه، تُلقي بشباكها العنكبوتية حوله لعله يعلق بأحدها، ولكنه تغيَّر بعد أن تركته، وعلم أنه لايستطيع العودة، ليجدها رغم اشتياقٍ لعبقها وحضنها لا يفارق مهما ابتعد، وكيف ينسى أول حضن وأول قبلةٍ له؟ وأول عضَّةٍ ملتهبة لرقبته؟ وأول أظافر نسائيةٍ تخربش صدره في أقصى درجات الحماسة والاندماج؟!

ردَّ عليها بثباتٍ:

مفيش، عملت حادثة امبارح واتخانقت، و(نيرمين) كانت معايا، بكلمها مابتردش؛ تقريبًا كده زعلت وأنا مابحبش أزعلها انتي عارفة.

كانا قد اتفقا أن يصبحا صديقين بعدما رفض عرضها ليعود إلى حضنها، لم يُرد إبعادها عن حياته نهائيًا، أرادها أن تراه منعمًا في حب (نيرمين) الصادق، أرادها أن تظل بجواره تحاول العودة إليه فيرفضها كل يوم لرفضها له يومًا، يتعمد ذكر (نيرمين) في كل مناسبةٍ؛ بحجة كونها صديقته

المقربة وأكثر من يريحه ويفهمه، رأى الانزعاج في وجهها فشعر بالنشوة، ردَّت تحاول إخفاء ضيقها:

-معاها حق طبعًا؛ ما انت مابتبطلش خناق، لازم تثبت إنك جامد أوي ياخويا!

-يعني أعمل إيه يعني؟ مابعرفش أمسك نفسي!

-خلاص البس بقى!.. بس تصدق مش مصدقة لسه إنك حبيت بجد أخيرًا!

أراد أن يعنفها، أن يخبرها أنه أحبها من أعماقه، أحب شعور المغامرة في كل لحظة معها، أحبَّ قوتها وشراستها وحماسها وانطلاقها عندما يختليان ببعضهما البعض في أي مكانٍ كان يختبئان فيه عن عيون الناس وإن سهل رصدهما، ولكنه لا يستطيع الانكسار أمامها على ماضٍ تركه وراء ظهره وإن لم ينجلِ أثره، فردَّ عليها:

- ما لازم أحبها بجد، مافيهاش غلطة يابنتي، كويسة جدًا وفهماني ومحتوياني...

قاطعته بعد أن تخلت عن تمثيلها لتترك الغضب يعتلي ملامحها أخيرًا:

- وأنا ماكنتش كده صح؟!

لم يتفاجأ من رد فعلها، فلم تكن أول مرةٍ تنهار أمام بروده، لم يرد القضاء عليها ببضعة كلمات بعد، فلا تزال اللعبة تسليه، عاجلها مبررًا:

- يابنتي بلاش هبل؛ انتي حاجة تانية، واحنا صحاب، انتي أقرب حد ليا أكيد؛ علشان برتاح معاكي ومابعرفش أحكي لحد غيرك

ابتلعت كلماته على مضض، لا تصدقها؛ و لكنها تأبي أن تستسلم وتتركه لها، لا يمكنها ترك (نيرمين) لتنتصر عليها، تلك الطفلة البلهاء الخام لا يمكن أن تنافس ألاعيبها، ذلك الجسد الهزيل والملابس الطفولية لا يقارنوا بانحناءتها ومفاتنها وفساتينها وتنوراتها، ستتقبل كلماته الكاذبة البلهاء لتظل بجواره حتى يضعف أمامها، قالت مغيرةً لموضوع الحديث:

- فيه سفرية لاسكندرية قريب والمكتب كله طالع، هتيجي ولا الست هانم مش هترضى؟

- لا هاجي عادي

- لوحدك ولا هتجيبها في ديلك؟!

-لا طبعًا لوحدي؛ مش هتنفع هي في الجو بتاعنا ده خالص

-آه كتكوتة أوي هي حبيبة ماما!!

قالتها مستهزئةً فرد عليها محذرًا:

-دلال!!

-خلاص ياعم الحِمش، أنا قايمة خالص

قامت وعدَّلت من فستانها في بدايةٍ لعرضٍ جديد أمامه، ذراعاها ورجلاها تلمعان أسفل الأضواء الموزعة في سقف الغرفة المنخفض، خرجت من الغرفة فلم تفارق صورة ظهرها ومؤخرتها وهي تغادر من عقله طوال اليوم، كاد أكثر من مرةٍ أن يستدعيها ثم يصرفها ليستمتع بمشيتها في غرفته الأنيقة، تذكَّر أول مرةٍ ارتمت في أحضانه دون سابق إنذار، كانا في سهرةٍ في إحدى الملاهي الليلة مع باقي الموظفين في الشركة، الكل يرقص ويضحك ويشرب ويدخِّن السجائر في العلن، أما سيجارة الحشيش فتخبَّأ أسفل الطاولة، تخرج مختبأةً تقبَّلها الشفاه المختلفة، تعود أسفل الطاولة وتنتقل إلى اليد التالية، عندما مسكت يده فجأة وقامت بسحبه أمامهم كلهم، خرجت به من المكان وهو يتبعها دون سؤال، توجهت به إلى باحة ركن السيارات، تمرُّ به أسفل أعمدة الإنارة فيرى ظهرها كله من فتحة فستانها، لا يعوق نظره سوي حبلين من القماش المتقاطعين يمسكان الجزء الأمامي لفستانها كي لا يسقط، ثم ينتقلان إلى الظلام مرةً أخرى، فيكتفي الشعور بأصعابها الناعمة تعتصر يده، حتى وصلت به إلى باب

سيارتها الصغيرة، أخرجت المفاتيح من حقيبتها الصغيرة وضغطت على زرٍّ لتفتح أبواب السيارة، استدارت له وارتمت في حضنه تعتصر رقبته، تغرس أظافرها في رأسه بين خصلات شعره، قبَّلته من أذنيه ثم رقبته، تركته، دفعته داخل سيارتها، حيث جرَّب كل شيءٍ لأول مرةٍ.

شعر بالحماسة والرغبة يتزايدان مع تذكره، خشي من أن يضعف أمامها فيخسر كل شيء، مسح وجهه ودعك عينيه، أمسك هاتفه وأخذ يقلب فيه، (نيرمين) لم تتصل بعد، لم يتصل أحدٌ، لم يعد يتصل أحدٌ به في الآونة الأخيرة، أصبح يشعر بالوحدة بعد ما صار لا يجد من يشاركه الحديث ولا الخروج، لطالما كان أصدقاؤه المقربون قليلين، لم يعلم لمَ لا يتصل به الآخرون عندما يجتمعون؛ رغم احترامهم له وضحكهم له عندما يقابلهم كل حين؟ هل لأنه ليس مقربًا منهم؟ ولم لا وقد حاول ولكنه لم يستطع أن يكون تابعًا لهم؟ كرامته تمنعه من الاتصال بهم كل يوم ليقابلهم، إن كانوا يريدونه فسيتصلون به، مرَّ وقتٌ طويل دون أن يتواصلوا معه فامتنع عن التراجع هو رغم وحدته، أما ذلك اليوم ومع اختفاء (نيرمين) أصبح لا يقوى على المقاومة، فتح الـ (واتس اب) ليجد دردشتهم المجمعة الأولى في قائمته، ٦٥٤ رسالة لم يقرأ منها شيئًا، ولم يقرأ ماسبقها، فتح الرسائل ولكنه لم يكترث بأيٍّ منها وكتب:

-وحشتوني يا رجالة والله، فينكم؟ عايزين نتقابل

وانتظر أن يرد عليه أحد، فطال انتظاره.. يعمل على حاسبه الآلي قليلًا، يتصل بـ (نيرمين) فلا ترد، يتفقَّد هاتفه فلا يجد ردًا؛ فيزداد ضيقه وتزداد وحدته وحشةً، ويزداد ندمه على ضعفه لمراسلتهم.

*****

تشجنت مشاعره، مزيجٌ من البهجة والحماس والتوتر، يهزُّ قدمه وينقر بأصابعه على الطاولة, يتفقد هاتفه باحثًا عن مكالمةٍ أو رسالةٍ منها، مرَّت عشر دقائق على الميعاد المتفق عليه بينهما, ولكنه كان على استعدادٍ أن ينتظر، أن يختلق لها كل الأعذار، فلقد استجمع شجاعته ليطلب مقابلتها في أشهر، ولقد وافقت دون إلحاحٍ منه أو مبرر, فلن يجعل عشر دقائق تأخير منها تفسد بهجته.

ألقى (تامر) نظرةً على المكان، هاديء تستطيع سماع الموسيقي الهادئة الرومانسية بوضوحٍ، صغير يشعرك بارتياحٍ يتسلل لأعماقك، أضاءته خافتةٌ تأتي من مصابيح معلقةٍ بأحبال مجدولةٍ لتقترب من الطاولات الخشبية المربعة القليلة المتقاربة، نادلةٌ واحدة تطوف بخفةٍ بين الطاولات، وديعة الملامح مليحة القسمات, طويلة الشعر-البني- والقامة, سمينةٌ بعض الشيء جميلة المنحنيات, توزع ابتساماتٍ دافئة صادقة على زبائن المكان القلائل،

تتبادل معهم بضعة كلماتٍ، تضحك وترد وتطيل من وقفتها مع كل طاولةٍ ثم تنطلق إلى الأخرى, قبل أن تذهب إلى المطبخ لتعود محملةً بأكوابٍ من القهوة والشاي الساخن لتدفء المنتظرين، وصلت لـ (تامر) أخيرًا, عرف نظام هذا المكان جيدًا، فانتظر راضيًا دون تأففٍ, نظر لها فكشفته عيناه, قالت له بصوتها الرقيق:

- أستاذ (تامر) أخبارك إيه؟ شكلك متغيَّر... فيه حد جاي النهارده؟

-هو باين عليا أوي كده!؟

قالها مستغربًا بعد أن هربت الابتسامة من وجهه, فعاجلته النادلة:

- آه.. بس دي حاجة حلوة.

ابتسمت وهي تتفقده لوهلةٍ وقالت:

- شكلك حلو بصراحة!.

عادت البسمة إلى وجهه لدرجة البلاهة، ورد وهو يعدِّل من معطفه الكلاسيكي البني:

- بجد؟!

- آه بجد.. طبعًا هتستنى مش هتطلب حاجة.

- طول عمرك شاطرة.

-تسلم يارب.. بس شكلي كده هترفد قريب بسبب وقفتي دي ورغي

-اترفدي وإحنا كلنا نقاطع الكافيه؛ ده انتي اللي مدية المكان طعم، مش بعاكسك والله بس...

قاطعت كلماته المترددة وهي تضحك:

- والله عارفة من غير ما تقول، انت قديم هنا وطول عمرك راجل محترم وذوق، ربنا يخليك والله!.

- شكرًا يا (منة).

- العفو على إيه بس، لازم اجري بس قول لي.. حلوة؟؟!

شرد (تامر) ناحية الباب دون الردِّ عليها وكأنها لم تكلمه من الأساس، استدارت لتجد فتاةً تقف عند باب الدخول، يمكنها رؤية الحماسة والعفوية تقفز من عينيها الواسعتين الجريئتين وهي تتفقد المكان بابتسامةٍ عريضة، رأته فلوَّحت بيدها وهي تشبُّ كالأطفال لتقف على أطراف أصابعها ثم سارت نحوهم، كل خطوةٍ تظهر قسماتٍ تزيدها جمالًا، الأنف الدقيقة المزينة بحلقٍ لامع، الكحل والرموش الطويلة والحواجب السميكة، غطاء

رأسٍ ملفوفٌ بإهمال، تستطيع أن تري منه أغلب شعرها الحريري البني اللامع، جسدها الممشوق وملابسها الضيقة تظهره أكثر جمالًا، ملابس بسيطة لا تتناسب مع ملابس (تامر) الرسمية، فلا تقلل من جمالها شيء.

نظرت(منة) لـ (تامر) فوجدته ينظر لها بانبهارٍ وكأنه يراها لأول مرةٍ، متسمرٌ في مكانه لا يرمش ولا ينقر ولا يهز قدمه، قالت (منة) بحدةٍ في صوت منخفض:

- قوم اقف لها بسرعة.

انتفض (تامر) وكأنه كان متجمدًا وذاب الثلج مع كلماتها، وقف تمامًا مع وصول (ميار) إلى الطاولة، حيَّاها وصافحها بحرارة, (منة) تراقبه وكأنه ابنها يكبر أمام عينيها، لاحظت (منة) فجأة بأن وقوفها غير مبررٍ, بعدما جلسا هما الاثنان وهي مازالت واقفة, فتمتمت وهي تبتعد في حياء:

- هسيبكم شوية وارجع اشوف تشربوا إيه!.

ثم نظرت إلى (ميار) وقالت:

- حضرتك نورتي المكان.

- شكرًا، ربنا يخليكي بجد.

تأملت (ميار) المكان للحظاتٍ, نظرت إلى (تامر) وقالت:

- المكان جامد، ذوقك طلع حلو أوي! .. وانت كمان شكلك حلو، عجبني البلايزر!.

- بجد! ربنا يخليكي، والله وانتي كمان شكلك حلو أوي!.

- حلو إيه بس ياعم، مش كنت قولت لي كنت اتشيكت زيك كده بدل لبس الجامعة اللي أنا جاية بيه ده؟!.

- حرام عليكي والله، شكلك زي القمر

شعرت (ميار) بجدية وصدق كلمات (تامر) الأخيرة؛ فاحمرَّت خجلًا, ولمعت عيناها فرحًا، ولمعت عيناه هو الآخر عندما رأى السعادة على وجهها.

مرَّ الوقت سريعًا، يتبادلان فيه حديثًا لا فائدة منه ولا موضوع له، ولكن (تامر) كان سعيدًا.. سعيدٌ كما لم يكن من قبل, استأذنها أن يشعل سيجارةً مع قهوته ففاجأته بمشاركته التدخين!.. تمنَّى بداخله لو يراها أخوه فيري كم هي جميلة، مسلية، روحها خاطفة؛ تمنَّى لو يتوقف أخوه ولو للحظةٍ عن إصدار الأحكام على الناس دون معرفة، نظرت إلى ساعتها فتفاجأت, قالت:

-أنا اتأخرت جدًا، بس بجد اتبسطت.. لازم نكررها.

-بجد! ياريت.

-ليه متفاجئ كده دايمًا، انت ماتبسطتش؟!

- لا لا.. إزاي بس؟! اتبسطت جدًا طبعًا.

-وأنا كمان، يلا اطلبلنا الشيك من البنت الأمورة دي.. شكلكم صحاب

-لالا.. مش صحاب، هي بس ودودة مع الزباين القُدام وأنا هنا من سنين.

-طب وحتى لو صحاب فيها إيه؟!

- لا عادي مافيهاش حاجة أكيد..

صمت (تامر) لدقائق يرتب أفكاره ويستجمع شجاعته, ثم قال بجديةٍ:

-(ميار).. كنت عايز أقول لك حاجة

-أكيد.. قول

-(ميار) بصِّي... أنا من أول ماشوفتك وأنا جوايا حاجات وكده، وكنت عايز اتأكد منها، وكنت مستني ظروفي تتظبط..

رأى ابتسامة (ميار) تذبل شيئًا فشيئًا، لاحظ انزعاجها على عكس ما توقع، تردَّد للحظة، ولكن مشاعره وشوقه انتصرا على خوفه, فأكمل:

-بصراحة يا (ميار) أنا بحبك!!.

مرَّت دقائق ثقيلة من الصمت، يحدق فيها (تامر) في (ميار)، منتظرًا كلماتها التي ستحييه أو ستحطمه، (ميار) تنظر إلى كوب قهوتها الفارغ إلا من رواسب - متجمعة في القاع ومبعثرة على الجوانب بينها فراغات ترسم أشكالًا- تفكر ليس بمشاعرها اتجاهه، ولكن بالطريقة التي ستبوح بها له.

-بص يا (تامر).. أنا مش هكدب عليك، أنا كنت حاسة بمشاعرك دي، وكنت عايزة أبعد علشان معلقكش وأسيبك فتتعب، بس أنا كان صعبان عليا صداقتنا، وانت بجد كنت محترم وراجل أوي معايا، فمقدرتش أبعد، بس أنا مابحبكش بالطريقة دي علشان ماكدبش عليك، بس بجد بحبك زي أخويا وصديقي الصدوق، أنا آسفة بجد إني مبعدتش من الأول....

كان وجه (تامر) يعبس ويشحب ويبهت وينكسر مع كل كلمة منها، فقد علم قرارها قبل أن تقوله من تعابير وجهها، وتأكد من مخاوفه بعد أول كلمة لها، تركها تقول ما بداخلها لعله يجد في كلماتها ما يعطيه الأمل, فذبحته بكلماتها حتى صار لا يتحملها، قاطعها بصوت مرتعشٍ ضعيف:

- لا هي مش غلطتك ولا حاجة، أنا اللي آسف يا (ميار)... بجد!.

- لا يا (تامر) آسف على إيه؟! أنا مش زعلانة، ده أنا شرف ليا إن واحد زيك

يبصّ لي.

حاولت المزاح بخفةٍ لعلها ترى منه ضحكةً أو ابتسامةً تدل على أنه بخير، رأت الدموع تترقرق في عينيه, علمت أنها لن تحتملها، تدافعت الأفكار في رأسها كالنهر الثائر، كان عليها أن تبتعد، كان عليها ألا تعطيه الأمل، كان عليها أن تحبه... لماذا لم تحبه كما أحبها؟! علمت بأنها ستندم عليه في يومٍ من الأيام، وستتألم لتألمه الآن.

دقائق أخري من الصمت مرَّت وكأنها ساعات، كادت دمعةٌ أن تسقط على خديه فعاجلها بيده، فانهمرت دموعها هي لترسم خطًا بكحل عينيها على خدها إلى شفتيها، أخذت منديلًا تجفف وجهها, دفعت الكرسي وقامت وهي تقول بين شهقاتها:

-مضطرة أمشي.. سلام يا (تامر).. طمني عليك ها.. ماتنساش!.

لم تستطع النظر في عينيه، تابعها (تامر) وهي تنسحب مسرعةً إلى باب الخروج، لم تتوقف إلا لإحكام لف شالها الأسود، قبل أن تسحب الباب وتخرج مسرعةً دون النظر وراءها، رأتها (منة) فتجمدت في مكانها تراقبها بدهشةٍ وشفقة، تذكرت (تامر) فور انغلاق الباب وراء (ميار)، أسرعت بلهفةٍ ناحيته تريد أن تضمه إلى صدرها قبل أن يبكي، لم تكن معرفتها به وطيدةً، ولكن بضعة كلماتٍ على مدار السنوات كانت كافية لشخص مثل (منة)

لتكوِّن مشاعر صداقةٍ وعطف تجاه شخصٍ مثل (تامر)؛ رآها (تامر) قادمةً فجفف دموعه ومسح أنفه، قام وهو ينظر إلى محفظته منشغلًا بإخراج المال منها، رأت (منة) كل ما كانت تخاف رؤيته في وجهه فور وصولها، لم تحتج أن تسأله عما حدث، تردَّدت بعض الشيء قبل أن تعرض عليه وتقول:

- اقعد شوية اهدى، هاجيب لك قهوة تانية وشوية ميه، وهستأذن واقعد معاك شوية.. فت...

قاطعها (تامر) و قال:

- انتي عمرك ما قعدتي مع حد... أخاف على سمعتك وأخاف يحصل لك حاجة.. أنا كويس ماتقلقيش.

- طب.. هتيجي تاني امتى؟

- مش عارف..

ثم قام (تامر) وترك مالًا يتجاوز ما عليه دفعه بكثير على الطاولة، ثم أسرع نحو الباب هو الآخر وهو يكمل دون النظر إلى (منة)، متصنعًا القوة والثبات:

- سيبيها بظروفها..

علمت (منة) في تلك اللحظة أنها لن تراه مرةً أخرى، راقبته وهو يسير منكسرًا، تشعر بقلبها يُعتصر من أجله، تكاد تركض وراءه، تجذبه، وتجبره على الجلوس والكلام؛ ولكنها لم تكن سوى نادلةٍ.. أخذت النقود من فوق الطاولة وعادت إلى العمل، ولكن هذه المرة دون ابتسامتها.

*****

حدق (تامر) بالرسالة على هاتفه:

«تامر، مش هينفع نتكلم فترة لحد مانهدى... أنا آسفة»..

وضع هاتفه على الطاولة أمامه في يأس، ثم أخذ سيجارةً من علبته، أشعلها وأخذ يدخنها بشراهةٍ وكأنه يرجو أن يخنقه دخانها فيقتله، نظر للسماء بعينين دامعتين، ترك شمس نهار شتاءٍ قارس البرودة - يكرهه و يكره برده وأجواءه وكل ما فيه- تدفئ جسده وروحه، تذكَّر مذكراته فجأةً، انتفض واقفًا وذهب وأحضرها من غرفته، ثم عاد إلى جلسته في الشرفة وشرع يكتب:

« لن أكتب تاريخًا أو يومًا؛ فلم تعد هناك أهمية من رصد أرقامٍ تذكرني بكم مرَّ من عمري هدرًا..

أنا لستُ بفاشلٍ على الورق، تخرَّجت من هندسة القاهرة وكنت رياضيًا لوقت طويلٍ من حياتي، أنهيت فترة خدمتي العسكرية, لم أجد عملًا يرضيني بعد، ولكني واثقٌ بأنني سأجده في وقتٍ قريب..

و لكني اكتشفت أن الجانب الاجتماعي هو الأهم في سعادة كل واحد منَّا، وأنا فاشلٌ اجتماعيًا ولهذا فأنا حزين...

لم يكن لي أصدقاءٌ بحقٍّ، كلهم مجرد معارف مصلحةٍ، أوراقُ الدراسةِ، ربما مالٌ.. لا أكثر ولا أقل، وبالطبع لم تحبني فتاةٌ في حياتي رغم احترامي معهن كلهن.. إلا (ميار).. (ميار) الوحيدة التي تقبلت اهتمامي، (ميار) الوحيدة التي تركتني أحبها، أهتم بها وأخلص لها، ربما لم تهتم هي كما اهتممت أنا، ربما لم تكن تكثر من الكلام وربما كانت لا تبدأ أبدًا بالسؤال ولكنها كانت ترد، وكانت تلجأ لي كلما كانت تحتاج إلى شيء، فأنا رجلها.. لم يكن بيننا شيءٌ رسمي، وبالطبع لم نكن «متصاحبين «، ولكني كنت أحبها وهي تعلم ذلك ولم تقرِّر الابتعاد، وهذا كان يكفيني..

كنت سعيدًا لأول مرةٍ منذ سنوات، وها أنا أعود لتعاستي من جديد بعد أن فقدتها, لازلت أتذكر أول مرةٍ قابلتها في كافيتريا الجامعة، و لم يخف عليَّ ولا على أحدٍ آخر جمالها، رقتها، ابتسامتها، شقاوتها وهي تضحك وتقفز وتضم صديقاتها في عفوية...

جلست تحتسي القهوة مع صديقاتها في الطاولة المقابلة لي، فوجدت نفسي أراقبها وكأنها ملاكٌ أمامي، ابتسم مع ابتسامتها وأذوب مع عبوسها الطفولي، حتى انتهت من جلستها تاركةً وراءها هاتفها على الطاولة، أعدت لها الهاتف بعد أن استجمعت شجاعتي، لم أنسَ طريقة شكرها لي، لم أنسَ دقات قلبي المتسارعة وكأنني أتقدَّم لخطبتها، علمت أنها في عامها الدراسي الأول وأنَّ اسمها (ميار), أجمل بنتٍ عرفتها في حياتي, أوصيتها أن تتصل بي إن احتاجت إلى شيءٍ فوجدتها تأخذ مني الهاتف وتسجِّل رقم هاتفها وقالت:

«كلمني..هستناك!»..

ثم جرت وراء صديقاتها تاركةً وراءها مغرمًا، أبله، لا يجد الكلمات ليصفها أو يصف إحساسه تجاهها، أنا رغم كوني كاتبًا، ربما مبتدئًا، ربما لم أكتب إلا لنفسي؛ ولكنني ظننت بأني بارعٌ في الكلمات, ولكنها أرتني كم أنا ضعيف، أعلم بأنني كتبت عنها مراتٍ لا تُحسب، ولكن هذه ستكون الأخيرة؛ فلقد سمعت نصيحة (أحمد)، وأخبرتها أني أحبها، وهي لم تتقبل حبِّي»..

ألقى (تامر) القلم في غضبٍ، أغلق مفكرته وأخذ يتأمل الأشجار الملونة المرسومة على غلافها، حاول تهدئة نفسه، ولكن هذا لم ينتج إلا عن بكائه بهيستيرية، يلتقط أنفاسه بصعوبةٍ، يبكي على حبٍ ضاع ورفيقٍ فقده، وعمرٍ

عاشه وحيدًا حزينًا، استطاع الهروب منه لبعض الوقت ولكنه عاد إليه في النهاية، ولا يملك أملًا في الهروب منه مجددًا عما قريب، حتى الكتابة لم تنجح في تهدئته هذه المرة.. سمع صوت باب الشقة يُفتح، علم بأنه (أحمد)؛ فهما يعيشان وحدهما منذ وفاة والدتهما قبلها بعامين، حاول جاهدًا مسح دموعه وتهدئة أنفاسه، لم يرد أن يراه أخوه يبكي فقد كان يعلم ما سيحدث...

* * * *

قضي (تامر) الأشهر التالية منعزلًا، لا يبوح بسرِّه إلا لمفكرته في جلساته معها في الشرفة، لاحظ (أحمد) تغيره في البداية، حاول معرفة ما أصابه ولكنه لم يخبره، لام (أحمد) (ميار)، غضب ثم هدأ ثم غضب، ولكن (تامر) كان دائمًا ما يخبره بأنه لم يتغير وأنه متوهم، حاول إقناعه أكثر من مرةٍ بأن يأخذ خطوةً في علاقته مع (ميار)، كان يصرُّ بأنَّ هذه ستكون الحل لمشكلته، لو كان يعلم بأن ما أصبح عليه أخوه كان بسبب نصيحته!.. لو كان يعلم بأن (تامر) أخذ بالفعل بنصيحته فجعلته يخسر كل شيء، ربما كان سيعلم وقتها بأنه لا يعلم كل شيءٍ كما كان يظن, ولكن (تامر) لم يخبره ولم يصارحه بما يجول في باله تجاهه..

في الأشهر الأولى كره (تامر) حياته، وكره أخاه لغطرسته وثقته الزائدة، كره نفسه وكره عدم معرفته السبب وراء رفض كل فتاةٍ له بهذا الشكل، هل السبب حقًّا أنه خجولٌ أكثر من المعتاد كما يقول أخوه؟ هل لأنه منطوٍ لا يعرف إلا كتبه ولا يحدِّث إلا مفكرته؟ ربما كانت أسبابًا كافيةً، ولكنها لم تقنعه، ربما لو علم السبب سيستطيع أن يعود إلى (ميار), ربما سيجد من تحبه في المستقبل، ربما لن يضطر للعيش وحيدًا, وهكذا بدأت مرحلةٌ جديدة من حزنه، مرحلةٌ أقل حدةٍ من الأولى، لم يعد يسأله أخوه عن سبب حزنه طوال الوقت؛ أو لعله سئم من عدم وجود إجابة، فتوقف عن السؤال، في كل الأحوال كان هذا أفضل من التعرُّض للمساءلة والتحقيق أكثر من مرةٍ كل يوم.. شرع (تامر) يقرأ ويتصفح، ويقارن ما يجده بما يراه في نفسه، يتدرَّب أمام المرآة على الكلام بثقةٍ والسير بثقة، يضحك ويمزح مع انعكاسه، يصوِّر نفسه ليشاهد تطوُّره، يكره ما يشاهده، يثور.. يبدأ من جديدٍ ويحاول مرة أخرى بأسلوبٍ آخر مختلف, ارتفعت معنوياته شيئًا فشيئًا, لم تكن إلا مسألة وقتٍ.. حتى اصطدم بالواقع، لا يستطيع تقييم نفسه، يحتاج لرأي أحدٍ آخر، وهو لا يعرف أحدًا يصلح لتلك المهمة، ولن يستعين بأخيه حتى لو كان آخر الأحياء, وإذا بإعلانٍ ممولٍ يظهر أمامه على الإنترنت، عليه صورة امرأةٍ متوسطة الجمال، تجلس كالطاووس على مقعد جلدٍ كبير، بحلَّةٍ رسميةٍ قوية، وأسفل الإعلان مكتوب:

«عايز رأي صريح من غير تجميل؟ في عيادتي هتلاقي تقييم لكل حاجة فيك، شكلك ولِبسَك وشخصيتك من غير كدب أو مجاملة»..

****

٥

- أستاذ (علاء)، ممكن تحكي لي عن أصحابك شوية؟

- آه أكيد.. أنا أصحابي كتير وفي كل حتة، بس اللي معاهم سري قليلين جدًا، يتعدوا على الصوابع.

- وانت شايف إنك محبوب بينهم؟

- آه...جدًا.

- طيب، تقدر تصنَّف نفسك إيه ما بينهم؟ القائد ولا اللي بيهزر ولا الجدع؟

- أظن شوية من كل حاجة، بس ده بيختلف أنا مع أنهي شلة فيهم، لكن تقدري تقولي إن ليا شخصيتي بين كل الشلل، ليا مركزي.

- حلو أوي..عمرك حسيت إنك مش مرغوب فيك؟

- لا..قليل.. أكيد كل واحد فينا حس ده في يوم، بس معايا قليل أوي.

- طيب ممكن تقول لي إيه اللي من وجهة نظرك مخللي الناس حباك كده؟

- وليه لأ؟!.. جدع مع الكل، بهزَّر بس بدي كل واحد حجمه واحترامه، ليا

شخصيتي ومكانتي... تقيل يعني، مش موجود دايمًا بس وجودي بيفرق.

- وإيه اللي ممكن يخللي الناس تكرهك؟!

- أنا محدش من اللي حواليا بيكرهوني، يمكن ناس غيرانة مني في الشغل أو...

- لأ أستاذ (علاء).. حضرتك مافهمتش سؤالي!!

قاطعتني بحدة، الانزعاج واضح في صوتها.. وأكملت:

- إيه اللي في شخصيتك ممكن يضايق اللي حواليك، إيه الوِحش اللي في شخصيتك؟

- عصبي... وغشيم وقت عصبيتي.

اضطربت (الدكتورة) فور سماعها إجابته، شعرت أنها تهديد أكثر منها إجابة، حدَّق الاثنان ببعضهما في تحدٍ وغضب، تكاد تري التوتر يملأ الأجواء حولهما، وكأنهما ينتظران صوت الجرس لتبدأ مباراة ملاكمةٍ بينهما، عادت (الدكتورة) إلى هدوئها، فكانت أول من كسر مسابقة التحديق بنظرها إلى الأوراق، أرخت ملامحها قدر ما استطاعت، ثم عادت تنظر إليه نظرتها المهنية الحيادية، وهي تقول بصوتٍ أقلَّ حدةٍ:

- أستاذ (علاء)، أنا عايزة حضرتك تقوم تمشي لحد المراية اللي هناك دي

وأشارت إلى المرآة المزينة بالمصابيح وراءه, وأكملت:

- وتظبَّط شكلك وهدومك فيها، تبص لنفسك شوية، وخُد وقتك، اتصوَّر فيها، وبعدين لما تخلَّص ارجع تاني، وعايزاك تعتبرني مش هنا.

حدق بها (علاء) للحظات، بدا وكأنه سيرفض، ولكنه في النهاية اتكأ على مسند المقعد، قام و سار بخطوته الواسعة الهادئة وكأنه عارض أزياء، حتى وقف أمام المرآة، نظر إلى انعكاسه في بادئ الأمر، عدَّل من معطفه وقميصه، راقبته يقف ظهره مفرودٌ ورأسه مرفوعةٌ في شموخ، ملابسه تُظهر اهتمامه بنفسه، مِشيته ووقفته ونظرته في المرآة، كلها لشخصٍ يحب نفسه، إذن فلمَ أتى إلى هنا من الأساس؟! كان هذا السؤال الذي يدور في رأسها.

أخرج هاتفه ليلتقط صورةً لنفسه, ما إن نظر إلى هاتفه حتى بدأت ملامحه تتغير فجأةً، تحولت غطرسته إلى حزنٍ وانكسار، تقوَّس ظهره وكأنه يضعف، نظر إلى المرآة يحدِّق في انعكاس وجهه، أغلق الهاتف ثم عاد إلى مقعده دون أن يلتقط صورةً كما طلبت منه.

- إيه اللي حصل؟؟.. ليه ماخدتش الصورة، ليه كشَّرت؟!

- مافيش.. افتكرت حاجة ضايقتني.

- ضايقتك أوي كده لمجرد إنك افتكرتها!!.. طب ممكن تحكيها لي؟

- أكيد هحكيها لك.. بس خليها كمان شوية.

قاطعه صوت نقر على الباب، دخل (محمود) ليري مشاعرهما على وجهيهما، (الدكتورة) تبدو منزعجة، منعقدة الحاجبين، لم يعتد رؤيتها هي التي تكون متأثرة بالجلسة، و(علاء) حزينٌ منكسر، ملامحه بين الغضب والحسرة، كاد ينسحب ويغلق الباب وراءه عندما لم يعره أيٌّ منهما أيَّ اهتمامٍ، ولكنه تذكَّر أمه، فقال بصوتٍ خافت تسمعه (الدكتورة) بصعوبةٍ:

- دكتورة، بعد إذن حضرتك.. ممكن كلمة؟

نظرت إليه (الدكتورة) بغضبٍ، أرادت أن تصرخ فيه ليخرج ولكنها تمالكت أعصابها، أشارت إليه أن يأتي، اقترب منها بتوترٍ وحياء، مال عليها وتمتم بضع كلماتٍ في أذنها؛ فأشارت إليه أن يذهب وهي تردد:

- تمام.. تمام، مافيش مشكلة، ابقي طمِّني عليها.

- شكرًا يا دكتورة.

قالها (محمود) ثم نظر إلى (علاء) وقال:

- آسف يا أستاذ (علاء).. بعد إذنكم.

أومأ له (علاء) دون التحدث، انسحب (محمود) من الغرفة وهو يفكر بشيئين: أمه، وأن (علاء) يشبه شخصًا رآه من قبل، ربما لهذا كان متوترًا عندما رآه يدخل العيادة, و لكنه لم يستطع تذكر مَن يكون.

- آسفة على المقاطعة.. خلينا نكمل.

قالتها (الدكتورة) وهي تعود لأوراقها تنظمها وتكتب بضعة أشياء، ثم نظرت إلى (علاء) مجددًا وهي تسأله:

- حضرتك ممكن تقول لي انت ليه هنا؟ إيه السبب اللي خلّاك محتاج رأيي؟ انت باين عليك واثق من نفسك!.

- ده حقيقي فعلًا؛ بس كان عندي سببين، أول واحد له علاقة بالموضوع اللي زعلني من شوية، وهحكيهولك.. تاني سبب فضول ببساطة!.

- طيب وحضرتك ناوي تقول لي اللي عايز تحكيهولي ده امتي؟

تجاهل (علاء) سؤالها عندما اهتز هاتفه، أخرجه وحدق فيه للحظات، رأت ملامحه تعود للحياة، ابتسامةٌ بسيطة، لمعة بهجةٍ في عينيه، ازدادت نظراتها استغرابًا وحاجبها انعقادًا، بدأت تشعر بعدم الراحة خاصةً بعدما غادر (محمود) العيادة منذ لحظاتٍ.

أعاد (علاء) الهاتف إلى جيب معطفه، الابتسامة البسيطة أصبحت عريضةً متحمسة، بل مخيفةً ، قال بصوتٍ عالٍ متحمس:

- دلوقتي أقدر أقول لك اللي زعَّلني من شوية وليه أنا هنا.

وقف فخفق قلب (الدكتورة)، سار ناحيتها ببطءٍ، يسد طريقها إلى باب الخروج، تجمَّدت في مكانها ترتجف، الأفكار تتسارع في عقلها فلا تجد ما ينقذها، فاكتفت بالجلوس منكمشةً محدقة في جسد (علاء) الضخم وهو يقترب منها، وجهه القوي، لحيته، شعره القصير المتراجع، ابتسامته التي تبدَّلت لصرامةٍ، لم تكن ترى أسنانه ولكنها شعرت بها تطحن بعضها البعض داخل ذلك الفك العريض المشدود في ثوران تراه ولا تعلم له سببًا..

دار حول المكتب، مرَّر أصابعه عليه، لاحظت ارتداءه قفازٍ أسود صوفٍ مطابقٍ لمعطفه، ظنت في أول الجلسة بأنه يكمل مظهره الأنيق فلم تعره اهتمامًا؛ ولكنها الآن تخافه وتخاف (علاء) كما لم تخف من شيءٍ في حياتها ، نادت بصوت مرتعش تحاول التمسك فيه بشيءٍ من الثبات فلم تنجح:

- محمود.. محمود.

- (محمود) مشي خلاص، زمانه خد موتسيكله وقرَّب يوصل لمامته كمان!.

- انت إزاي عرفت أنه مشي خلاص؟ ازاي عرفت أصلًا موضوع مامته؟

اقترب (علاء) حتى أصبحت في متناول يده، تركت العنان للأدرينالين يسيطر عليها بعد أن تأكدت أنها في مشكلةٍ حقيقيةٍ، انتفضت وكأنها أصيبت بمسٍ كهربائي، حاولت الدوران حول المكتب من الاتجاه المعاكس ولكن (علاء) كان أسرع منها، أمسك بها بيده اليسرى، سحبها ناحيته بقوةٍ فلم تتمكن من مقاومته، ارتطمت في صدره و كأنه حائط, ارتدَّت عنه كأنها كرةٌ، حاولت استعادة توازنها وهي تمسك بذراعه, تدفعه بكل قوتها، تحاول التحرُّر، تصرخ صرخاتٍ متقطعة صغيرة, وإذ به يلكمها لكمةً مدويةً، تصيب ذقنها الرقيقة، تطيح برأسها الناحية الأخرى وتُفقدها وعيها؛ لتسقط في التوِّ دون مقاومةٍ.

****

٦

راقب (أحمد) (تامر) لأشهرٍ يتجول و كأنه ممسوسٌ، حزينٌ حائر في بادئ الأمر، كما هي عادته منذ صغرهما، ولكن انعزاله وحزنه كانا أكثر من المعتاد، ظلَّ (أحمد) يحاول معرفة سبب تغيُّره وكان (تامر) يتهرَّب من مواجهته كل مرة، يعطيه أسبابًا لا تقنعه ولا تريحه، حتى أخبره عن (ميار) أول مرةٍ، عن حبه لها وانشغاله بها، عن حزنه عندما تتأخر عليه في الرد على رسائله، أو عندما يراها مع غيره في الجامعة، وعن سعادته عندما تنقلب الأحوال وتعود إليه بطاقتها تشكو له همَّها، حاول (أحمد) إقناعه بأن يخبرها رغم كرهه لها، فقد كان يراها فتاةً ماكرة تستغل طيبة أخيه وسذاجته بينما تستمتع بوقتها مع مَن يسعدها، كان يعلم أن أخاه لا يستطيع مجاراتها ومجاراة طاقتها، وعلم أيضًا أنه لن يستطيع إقناعه بالابتعاد عنها، فقرَّر أن يدفعه للارتباط بها بدون قيودٍ رسمية، فيرى أنها لن تصلح له بنفسه قبل أن يتقدم لخطبتها، هذا كله إن وافقت عليه من الأساس، وهذا ما كان يعتمد عليه أكثر، كان يعلم أنَّ أخاه سيتعذب، ولكنه سيتعلم، كان يأمل أن تصلح كسرته الأيام فيصبح أقوى.. لم تنجح خطته فأخوه كان

ضعيفًا وخبرته أقل من أن يخبرها، ظنَّ أنه يجب عليه خطبتها فهي لن تقبل بأن يكون بينهما علاقةٌ دون خطبةٍ، رآه يتحول من السيء إلى الأسوأ، أقنعه باللين قبل أن يفقد أعصابه ويثور عليه، كل هذا دون جدوى وكأنَّ أخاه مسحورٌ بسحرها، ولا يرى غيرها أمامه، زاد انعزاله مع الأيام، وكثرت تقلبات مزاجه وزادت حدةً، حتى ارتدى معطفه البني المفضل في يومٍ وتزيَّن، وكان سعيدًا حقًّا، كما لم يره (أحمد) منذ سنواتٍ، حاول معرفة إلى أين هو ذاهب بتلك الثياب، كانت الشكوك تتزايد داخله، يفرح ببهجة أخيه المستجدة، وبخروجه أخيرًا من المنزل الذي لم يتركه منذ أشهر إلا لشراء السجائر، ولكنه لم يكن مطمئنًا لهذا التحول المفاجئ وتلك المقابلة التي لم يخبره عنها أخوه ولكنه توقَّع مع من ستكون..

انقلبت الأحوال بعدها إلى الأسوأ، أصبح أخوه منعزلًا تمامًا، لا يتحدث معه على الإطلاق، لا يشاركه طعامًا أو مجلسًا وكأنه يتحاشاه ويتجنَّب أي فرصةٍ للحديث بينهما, فهو ينعزل في الشرفة، يدخن بشراهةٍ، ويكتب، يدخل عليه (أحمد) فيرى آثار الدموع في عينيه المنتفختين الحمراوين كعيون المدمنين، يتحدث معه، يسأله عن حاله، يستعطفه ويحاول أن يشعره بالأمان والدعم، يصبر ولا يغضب عندما لا يجد جدوىً من حديثه, كان يعلم أن نصيحة (نيرمين) له صحيحةً؛ يجب إشعار أخيه بأنه معه وليس ضدَّه، ولكن أخاه أغلق كل الأبواب في وجهه، وألقى كل محاولاته في

أقرب مكبٍّ للقمامة، لم يعد يحتاج منه شيئًا سوي الابتعاد عنه تمامًا!.

غضب (أحمد) كعادته المتسرعة كثيرًا، كاد أن يفسد خطة (نيرمين) أكثر من مرةٍ ويقتحم غرفة أخيه يعنفه، يصفعه، يعيده إلى رشده، ينتشله من عالمه الذي غرق فيه حتي كاد يفقد عقله، بل هو فقد عقله، ولكن (نيرمين) كانت أذكى، وكانت تعلم كيف تسيطر عليه، فاحتوت غضبه كما كانت تفعل أكثر الوقت، وجعلته يقتنع أن يترك أخاه يحزن ويتقلَّب كما يشاء دون ضغطٍ من (أحمد) زائدٍ عليه، حتى يقرر (تامر) وحده أنَّ الوقت حان ليعود إلى (أحمد) فيجده ينتظره بتفهُّمٍ وهدوءٍ لا بغضبٍ أو قسوة .

يسمعه (أحمد) يبكي في غرفته حينًا، ثم يسمعه يضحك ويحدث أحدًا حينًا، يغير من مظهره كل يومٍ من مشيته، فأصبح وكأنه رجلٌ آليٌّ مصطنع في كل تفاصيله، ممثل فاشل, بل كمريضٍ نفسي يمتلك أكثر من شخصية كمن يراهم (أحمد) في الأفلام، خاف على أخيه حقًا, على الأقل لم يعد يسمعه يبكي، ولم يعد منعزلًا طيلة الوقت، حتى عاد (أحمد) في يومٍ إلى المنزل فلم يجده، ظنه يشتري سجائر كعادته، ولكنه تأكَّد أنَّه خرج عندما تأخَّر دون عودةٍ، فرح (أحمد) رغم عدم شعوره بالراحة لما يحدث، كما كان حاله طوال الوقت في الآونة الأخيرة، ولكنه كان يقول لنفسه إنَّ أخاه يتحسن وهذا كان يكفيه.

دخل (تامر) البيت كثورٍ هائج، يضرب الأرض بقدميه في كل خطوةٍ، يخلع حذاءه ثم يطيح به ليرتطم بأقرب حائطٍ ويسقط، جسده الهزيل متصلبٌ مشدود، تستطيع رؤية العروق نافرةً من جلده متسعة من الضغط المتزايد بداخلها، تجاهل (أحمد) الجالس يراقبه -ليس في دهشةٍ، وإنما في حسرة- أغلق باب المنزل بقوةٍ وراءه, لم يستطع (أحمد) المقاومة تلك المرة، شعر بالإحباط عندما وجده لم يتحسن، قرَّر مواجهة أخيه فسأله:

- كنت فين كده؟!

- مافيش.. كنت بتمشَّى.

ردَّ عليه أخوه في ضيقٍ قبل أن يتركه وراءه ذاهبًا إلى غرفته, حاول (أحمد) تهدئة نفسه ككل مرةٍ سبقتها، فاض كيله من أخيه وتحولاته للأسوأ, انتفض واقفًا، وهرول وراءه يترك أفكاره تتدافع إلى لسانه في غضب ويقول:

- هو أنا مش بكلمك؟! أنا زهقت وعايز أعرف فيه إيه دلوقتي حالًا..

- انت عايز إيه؟!

قاطعه (تامر) وهو يستدير بحدةٍ ليواجه أخاه، يداه مكورتان جاهزتان للَّكمِ، يحدق في عيني أخيه في تحدٍ، وكأنه يحذره من أن يقول كلمةً أخرى, تحفَّز (أحمد) لرؤيته هكذا، سيطر عليه الغضب، أخذ بضعة خطواتٍ

ناحية (تامر) وقد غاب عقله كما يفعل دائمًا عندما يثور، كاد أن يلكمه عندما اقترب منه ولكنه توقَّف، عاد إلى رشده فجأةً في آخر لحظة، اقترب حتى لامست رأسه رأس أخيه، ظلَّ يقاوم طاقةً هائلة داخله تدفعه إلى الشجار، ففي النهاية ذلك أخوه، لم يتراجع (تامر) على الإطلاق، ظل واقفًا جاهزًا للشجار، يدفع رأس أخيه بجبهته العريضة، حتى قرَّر (أحمد) أن ينسحب تلك المرَّة, أخذ خطوتين إلى الوراء، نظر إلى (تامر) نظرةً لم يرها أخوه منه من قبل، نظرة خزلانٍ؛ فهو لم يصدِّق أنَّ أخاه سيقف أمامه يتحداه للشجار كما فعل، ولكن (تامر) لم يبدُ عليه التأثر، فاستدار (أحمد)، ارتدى حذاءه وأخذ مفاتيحه، وخرج بملابس البيت لا يعلم إلى أين سيذهب بمظهره وحالته تلك.

لم يتحدث (أحمد) و(تامر) بعدها قط، يراقبه (أحمد) يتحول في مظهره وطريقة كلامه وملبسه وطريقة تصفيفه لشعره وشكل لحيته, ثم يخرج فجأةً قبل أن يعود كالثور الهائج، يكسر ويصيح و يلكم الحوائط والأثاث فلا يتحرك (احمد)، يكتفي بالجلوس أمامه، يراقبه بحسرةٍ.. لا يعلم متى سيتوقف هذا الجنون وكيف؟ أراد أن يأخذه إلى طبيبٍ نفسي، ولكن كيف يقنعه بأن يأتي معه؟

كيف يقنعه بأنه يحتاج إلى علاجٍ نفسي وفي أسرع وقتٍ؟..

كيف له أن يقنعه بالاستماع إليه ولو لمرةٍ واحدةٍ أخرى؟..

*****

٧

بدأت تستعيد وعيها مع ارتجاج جسدها، لم تستطع تذكر أين كانت وماذا حدث في بادئ الأمر، شعرت بالألم في فكِّها ورأسها، حاولت التأوُّه فلم تستطع, فتحت فمها لتدع أوجاعها تخرج مع تأوهها فلم ينفتح، رفعت كفها لتتحسس رأسها، فلم تطعها كفَّها، لم تكن تعلم بعد ماذا يحدث، هل هي بداخل حلمٍ أم هي مشلولةٌ لا تستطيع الحراك، ففتحت عينيها ببطءٍ، نور المصباح يسطع بقوةٍ يجبرها على أن تغلق جفنيها مرة أخرى، قبل أن تعود لتحاول فتحهما بحذرٍ من جديد.

رأته يتحرك أمامها.. طيفٌ لا تستطيع أن تميز ملامحه، بدأ معطفه الأسود يذكِّرها بما حدث، عادت إلى الواقع فعادت إليها ذاكرة ما حدث منذ دقائق, وعاد إليها الهلع والخوف دفعةً واحدة, انتفضت تحاول التحرك بهيستيرية، تحاول الصراخ بأعلى صوتها، فيمنع حركتها الشريط اللاصق الملتف حول ذراعيها وقدميها يثبتها في المقعد، وقطعةٌ منه على فمها تمنع صرخاتها..

أنهى (علاء) وضع لمسته الأخيرة، عدَّل من مقعدها ليقابل مقعد الزائرين كما هي جلستها المعتادة، نظر في عينيها الواسعتين الهلعتين، اقترب حتى

كادت تلمس أنفه أنفها

ابتسم وقال بهدوءٍ:

- اهدي.. اعتبرينا لسه في الجلسة, لسه عندنا كلام كتير عايزين نقوله، أنا هسيب اللزقة شوية لحد ما أتأكد إنك عقلتي، وبعدين أبقى أشيلها..

حاولت الردَّ فخرجت منها الكلمات مكتومةً، ضجيج لا تميز منه شيئًا، فقاطعها:

- مش بقول لك هسيبه شوية.. لما تعقلي خالص هبقى أشيلها!.

أكملت محاولاتها، انهمرت دموعها على خدها بحرارةٍ، الكلمات المكتومة تخرج بنبرةٍ مستعطفة، ترجو (علاء) أن يرحمها، أن يتركها, تعلم أنه يفهمها ولكنه تجاهلها، عاد إلى مقعده وجلس بهدوءٍ وكأنَّ شيئًا لم يكن، يحدق بها دون التفوُّه بكلمةٍ.

يأست الدكتورة, بعد محاولات استعطافٍ وصراخٍ ومقاومةٍ للقيود باءت جميعها بالفشل؛ فسكتت إلا من أنينها وتهدُّج أنفاسها، خرج (علاء) من صمته بعدما تأكد أنها لن تقاطعه وقال:

- كل ده مالوش لازمة، (محمود) خلاص مشي وماعندكيش عيانين غيري

النهارده، محدش هيسمعك ومحدش هيلحقك فمتحاوليش... علشان ماتصعبَّيش الدنيا عليا وعليكي.. تمام؟!!

لم تجب الدكتورة ولم ينتظر (علاء) منها إجابة أو إشارة, أكمل:

- تمام.. خلينا نكمل الجلسة.

قام (علاء) ففزعت الدكتورة، تشنَّجت واهتزت في مقعدها وكأن روحها تغادر جسدها, فقال لها (علاء) وهو يسير إلى المرآة في الطرف الآخر من الغرفة:

- ماتخافيش مش قايم لك انتي، أنا قايم أكمل اللي طلبتيه مني وماقدرتش أعمله من شوية، و بعدين هبقى أشرح لك كل حاجة لما نخلص، بس لو ماخلصناش هتزعلي مني، سامعاني؟..

مرة أخرى لم ينتظر (علاء) منها ردًّا على كلامه، بل لم ينظر إليها من الأساس، وقف أمام المرآة يعدِّل من معطفه، أخرج هاتفه، نظر له بعض الوقت، ثم أخذ يلتقط لنفسه صورًا مختلفةً بأوضاعٍ تظهر قوَّته وضخامة جسده, (الدكتورة) تراقبه بخوفٍ لم تعرفه من قبل، تبحث بعينيها حولها عن مَخرجٍ من مأزقها هذا، تتزاحم الأفكار في رأسها كقطيعٍ هائج، لا تعلم ما إن كانت اللكمة هي ما تؤلم رأسها أم الافكار، ولكن ألمها كان آخر

مشكلاتها في تلك المرحلة، عاد (علاء) يسير ناحيتها، تخطَّى مقعده والطاولة الصغيرة، دار حول المكتب حتى وقف أمامها، كاد قلبها أن يتوقف، جلس على طرف المكتب أمامها، وجَّه إليها شاشة الهاتف وأخذ يقلِّب في الصور التي التقطها، كانت تنظر إلى وجهه فعنفها بصرامة وقال:

- بصِّي للصور مش لوشي، قولت لك هنكمل الجلسة!.

انتفض جسدها مع قوة صوته، لم تجد مفرًا سوى الانصياع لرغبته، نظرت إلى الهاتف تشاهد الصور، قبل أن تظلم شاشة الهاتف وتضيئ مرةً أخرى لتجد صورة رجلٍ آخر

-خلفية لشاشة القفل- أمامها، رجل يشبهه بعض الشيء ولكن أقبح، رأسه صلعاء تمامًا، لحيته كثيفة، جبهته عريضة، أنفه غليظ, يبدو وكأنَّ الصورة أُخذت له عنوةً فلم يكن يبتسم، تذكرته في الحال... لقد كان أحد مرضاها!!.

* * *

استند (محمود) على مكتب ممرضة الاستقبال -في مركز الغسيل الكلوي- يلتقط أنفاسه، لم تكن المسافة من حيث أوقف دراجته النارية إلى المكتب كبيرةً، ولم تكن سرعته في الركض عالية أو حتى مقبولة، ولكنها كانت كافيةً

لجعله يلهث؛ فهو لم يمارس الركض أو الرياضة عامةً منذ كان طفلًا يلعب الكرة في الشارع, سألته مستغربة:

- أستاذ (محمود)؟! لسه بدري على ميعاد والدة حضرتك.. وبعدين مالك بتنهج كدة ليه؟!..

هدأت أنفاس (محمود) بعض الشيء مع انخفاض ضربات قلبه، إلا أنَّ وجع صدره وكتفه ظلَّ موجودًا, تعجَّب من أسئلتها ومن دهشتها فردَّ عليها قائلًا:

- هو مش انتو اللي كلمتوني وقولتوا لي إنها تعبانة؟!

- إحنا؟!.. لا كفى الله الشر، والدة حضرتك زي الفل ومحدش كلمك، أنا اللي بكلم الناس لو فيه حاجة

- يعني إيه يعني؟ في حد كلمني وقال لي آجي على طول علشان والدتي تعبانة!

أخرج (محمود) هاتفه، ضغط بضعة ضغطاتٍ، ثم وضع الهاتف أمام وجهها يريها الرقم الذي اتصل به وأكمل:

- أهو الرقم، مش تبعكم ده؟

دققت الممرضة فى الرقم للحظات، تراجع ذاكرتها بحثًا عن رقمٍ مشابه, هزت رأسها أخيرًا علامة النفي وهي تقول:

- دي مش نمرة العيادة، وماعتقدش إنها نمرة حد من البنات.

مالت بجسدها البدين تسحق مسند المقعد، التقطت حقيبتها البالية من على الأرض بجوارها، قلَّبت حتى أخرجت هاتفها، نقلت نظرها بين هاتفها وهاتف (محمود)، تكتب الرقم بأصابعها الغليظة على هاتفها، تفقدت البيانات على الهاتف فلم تجد شيئًا، عادت تنظر إلى (محمود) وهي تريه هاتفها وقالت:

- أهو مش متسجل عندي حتى..

اختلطت المشاعر داخل رأس (محمود) وقلبه ، غضبٌ وتوترٌ، وخوفٌ لم يقلّ بعد على أمه، انتصر الأخير فسأل الممرضة بنبرةٍ محملةٍ بمزيجٍ من مشاعره:

- ممكن أخش اطمئن عليها دلوقتي؟

- تمام يا أستاذ (محمود)، بس بصَّة وتطلع لو سمحت.

- تمام.. وآسف على اللي حصل، ده أكيد مقلب ولا حاجة

لم يقتنع (محمود) بتفسيره الأخير، شعر أنه يحتاج أن يعتذر لها، لتحميلها مشاعره عن شيءٍ لم تفعله, أومأت له وهي تبتسم، استدار (محمود) واتَّجه إلى الغرفة التي تأخذ فيها والدته جلستها.

نقر(محمود) على الباب البالي دون حاجةٍ، حكم العادة، كاد أن يسخر من نفسه لفعله هذا كل مرةٍ!.. فتح الباب بهدوءٍ ودخل إلى الغرفة الواسعة يسير بخفةٍ، على يمينه ويساره ستائر مغلقة يعلم ما ورائها ولا يريد رؤيته، يسمع تأوهاتٍ هنا، ضحكًا هناك، حتى وصل إلى ستارةٍ في نهاية الغرفة، عبرها ليجد أمه نائمةً لا تشعر بشيءٍ حولها، لا تتقلب أو تصدر صوتًا، وجهها مائلٌ إلى الزرقة وكأنها تختنق، خراطيم الدم متصلةٌ بين ذراعها النحيل والجهاز بجوارها، تبدو وكأنها في أحد أفلام الخيال العلمي، يمتصون منها قوة الحياة من دمائها.. ولكن (محمود) كان معتادًا على مظهرها هذا، اقترب منها بهدوءٍ، مرَّر يده على جبينها البارد برود الأموات ، وضع يده أمام أنفها فشعر بأنفاسها الضعيفة, هدأ قلبه وسكنت مشاعره بعض الشيء؛ فعاد إليه شعوره بالتعب خاصةً بعد ركضه.

خرج (محمود) من الغرفة وألقى بجسده على أحد المقاعد المعدنية في الخارج، يفكر فيما حدث مرةً أخرى, أخرج هاتفه وحاول الاتصال بالرقم الذي أخبره بشأن والدته، فوجد الرقم مغلقًا تمامًا كما توقَّع، هو مقلبٌ إذن, ولكن من عساه أن يفعل به هذا؟ مَن يمتلك مثل هذه القسوة ليفزعه

هكذا من أجل المزاح؟! لا.. علم بأنه ليس بمزاحٍ على الإطلاق، شعر بالقلق على (الدكتورة)، بحث عن رقمها في توترٍ على هاتفه، اتصل بها، رنَّ هاتفها بضعة مراتٍ ولكن المكالمة قُطعت من طرفها, تلك كانت عادتها دائمًا؛ لا ترد على مكالماته إلا إن كانت قد كلفته بمهمةٍ قبلها فترد عليه لتعرف إن كان أتمها ثم تغلق دون سلامٍ!..

ألقى (محمود) برأسه إلى الوراء يستند على الحائط المتَّسخ، ربما كانت تلك عادتها، ولكنه لم يشعر بالراحة لما يحدث، لمَ قد يجعله أحدٌ يترك عمله باكرًا هكذا؟ تذكَّر (علاء) فجأة وكم بدا مخيفًا غير طبيعي، ثم صعقته صورة الدكتورة وهي متأثرةٌ عندما دخل عليها قبل أن يذهب، فهو يحفظ تعابير وجهها عن ظهر قلب، وهو لم يرَ ذاك التعبير المنزعج على وجهها من قبل، خفق قلبه لفكرة وجودها مع (علاء) وحدها، هل كان أحمق لهذه الدرجة؟ هل تركها وحدها مع ذلك الرجل وحدها بتلك السهولة؟..

انتفض والخوف يدفعه، يتحكم في ذراعيه وقدميه، يجعلهما ينسيان التعب والضعف، سار سريعًا بضعة خطواتٍ, وإذا به يندفع عدوًا بأقصى سرعته دون تفكير!..

******

٨

انتهى الحفل بإيقاف الموسيقى الصاخبة بعدما لم يعد هناك سوى قليلٍ باقون في الدور السفلي للفيلا والحديقة الواسعة بالخارج، أما الباقون فلا يعلم أحدٌ إلى أي غرفةٍ انسحبوا ومع مَن!! الكُّل ثملٌ يضحك ويتمايل، فتعلوا ضحكاتهم وتتردَّد في هدوء الفجر بعدما صمتت الموسيقي أخيرًا، فارتاحت الآذان المتعبة، والتي لم تكن تعلم كم كانت تشتاق للهدوء إلا بعد ما جربته، راقب (أحمد) حفنةً من الناس تصعد السلالم الحلزونية، تاركين ورائهم ردهةً أشبه بمكبِّ النفايات، ورغم ذلك لم يفقد المكان رُقيًّا طبع عليه، بأثاثه قديم الطراز، مساندة الذهبية تلمع أسفل نورٍ قوي منبعث من مصابيح نحاسيةٍ كبيرة، متدليةٍ من السقف، سجادٌ متنوع يغطي رقعًا من السيراميك البراق هنا وهناك، وطاولةٌ كبيرة مستديرةٌ في منتصف الردهة تمامًا، محمَّلة بزجاجات الخمور بأشكالها المختلفة المغرية، لماذا يجعلونها بهذا الجمال الصعب مقاومته؟!.. ترك (أحمد) الردهة وراءه، فقد كانت متسخةً ومضاءة وكأن شمسًا قد سطعت في الداخل، خرج إلى الحديقة فاستقبله هواء فجر الإسكندرية يداعب قميصه المفتوح، يجفف قطرات العرق التي كست جسده ورأسه، كاد يعود أدراجه بعد

إلحاحٍ من التعب، تذكَّر الليلة برقصها وموسيقاها، بخمورها وحشيشها ودخانها، ونسائها التي اكتفي بالتمتع برقصهن ومزاحهن وثملهن دون التجرؤ باللمس.. «هو انت بجد حبيتها أوي كده؟!».. سأل نفسه عندما تذكر ما ضيعه من فرصٍ في تلك الليلة، وكل هذا لأجلها.. (نيرمين).. ألقى بجسده على الكرسي المحبوك من الخوص، بعد أن قرَّر ألا يترك للنوم أن يسرق ساعة سعادته، عادته من جلسته يستمتع بنشوته، أخرج سيجارته، أشعلها.. سحب دخانها إلى رئتيه وكتم أنفاسه، أغلق عينيه وتخيل الدخان في ظلام رئتيه يداعبها، ضحك فسعل بقوةٍ، ربما هو ثملٌ بعض الشيء، أخرج هاتفه واتصل، لم يكد الهاتف يرنُّ حتى أتاه صوتها:

- حبيبي!! طمِّني عليك.. اتبسطت؟

ابتسم بتلقائيةٍ لسماعه صوتها المتحمس، وردَّ محاولًا ترتيب كلامه قدر استطاعته كي لا تكتشف ثمالته:

-آه جدًا يا حبيبتي والله، كانت ناقصاكي

- ما انت عارف ماما بقى و كده، إن شاء الله نعملها في مرة، أوعى تكون عينك زاغت كده ولا كده!!

- طبعًا زاغت، ده الشركة طلعت كلها مُزز يا نونو والله!!

قالها مداعبًا مستفزًا، علمت أنه يقول الحقيقة متخفيًّا بالمزاح، وعلمت أيضًا أنه لا يجرؤ على خيانتها، فقد تملكته بحبها ودلعها ودلالها، قشرت تلك الهالة الزائفة التي رسمها حوله فلم يتقنها، هالة الفتي اللعوب الصلب الواثق من نفسه في كل خطوةٍ وكل وقت، حتى وصلت إلى الطفل الباكي الوحيد بداخله، رأت (نيرمين) كل عقدةٍ نفسية بداخله، علمت أنه يكذب كلما قصَّ عليها إلحاح واتصال أصدقائه به ليخرج معهم ولكنه فضلها هي؛ علمت بأنه يكذب في كل مرةٍ يخبرها به أنه سيخونها، فالخائن لا يقولها بهذه الطريقة الطفولية الساذجة، ورغم البراءة بداخلها والتي يحاول إخفاءها بعد أن طُعن بسببها وانكسر، فغطَّاها بالتمثيل والأكاذيب حتى جاءت (نيرمين)، رأتها فأخذت تنقب عنها، حاول مقاومتها ففشل، ولكنها لم تطرق عليها عندما وجدتها، بل لمَّعتها ليسطع بريقها من جديد، وهكذا أصبح يدمنها وأصبحت تدمنه بعد أن رأت ما بأعماقه، وليس ما يظهره.

أنهى المكالمة معها بعد اعترافه بحبه لها، ولم ينسَ تذكيرها بكرهه للاعتراف هكذا، إذن فلمَ تعترف يا صديقي المعذَّب؟ وضع هاتفه على الطاولة الخوص المستديرة أمامه، أراح ظهره وأشعل سيجارته الثانية، تأمل النجوم في السماء الصافية، فالقمر مكتملٌ ينير الحديقة الواسعة بأسوارها التي تسلقها النبات.

وضعت يدها على كتفه فانتفض؛ ضحكت بشقاوةٍ فعرفها، نظر ليدها على كتفه، أصابعها المنحوتة، أظافرها الطويلة المستديرة في نهايتها، لون طلاء الأظافر الأسود اللامع، تجول بعينيه على ذراعها البضِّ الممتلئ اللامع بياضه مع ضوء القمر، حتى وصل إلى فستانها الأسود اللامع كسماء ليلةٍ بلا قمر، تتراقص فيه النجوم بحريةٍ وتمرح دون قمرٍ يبعدها ليفترش السماء وحيدًا، قصيرٌ كعادتها، وربما أقصر حتى من عادتها، معلقٌ بكتفيها ناصعي البياض بحمالتين رفيعتين من القماش، علم ما ينتظره فكاد أن يركض هاربًا، تطارده طوال الأسبوع فانشغل عنها بالعمل الذي جاءوا إلى الإسكندرية من أجله، اختبأ منها وراء العاملين الآخرين فلم يردعها رادع، أما في تلك الليلة في حفلة أقاموها في إحدى فيلات الكينج ماريوط قبل عودتهم إلى القاهرة، ازدادت ألاعيبها حدةً وجرأة حتي تخطَّت كل حد، شعر بيدها تتسلل إلى ذراعه كل وقتٍ وكل وقتٍ، أظافرها وهي تحكُّ ظهره هنا وذراعه هناك، لحم كتفها الطري وهي تميل لتستند على ظهره كلما ضحكت، يهرب منها حينًا، يضعف فيتركها حينًا، حتى انتهت الليلة وظنَّ أنه نجح في التماسك أمامها، لتفاجئه في خلوته بحضورها القوي، انتقلت بيدها من كتفه الأقرب لها للأبعد فأصبحت تحيطه بذراعها، أخذت سيجارته ولثمتها بشفتيها تدخنها كمحترفةٍ، حدَّق بها منبهرًا لبضع ثوانٍ قبل أن يعود لرشده، ضحك فانقلب وجهها من الإغراء إلى التعجب، نظرت له

رافعةً حاجبيها وسألت:

- بتضحك على إيه؟!!

-على الدخلة الجامدة اللي عملتيها دي، بذمتك.. دي دخلة صحاب؟!

-لا مش دخلة صحاب يا أحمد، بس إحنا عمرنا ما كنا صحاب!

تفاجأ من اعترافها أخيرًا، تلذَّذ بكلماتها، بعدم ثقتها، بالرعشة في صوتها، الليلة سيأخذ بثأر عذابه لليالٍ طوال بعد تركها له، قال لها بثبات متحديًّا:

- لا، إحنا صحاب بقالنا فترة ومتفقين على كدة بقالنا فترة

- إحنا هنستهبل بقى؟! ده كذب بنضحك بيه على نفسنا، لكن أنا وانت عمرنا ما هنكون صحاب يا أحمد

لم يعلم إن كانت كلماتها تحمل أمرًا أم رجاءً أم معلومة، فصوتها ظل يتنقل ما بين الحزم والرعشة بين الكلمة والأخرى ولكنه لم يكترث، فأكمل:

- لا إحنا صحاب، أحمد بتاع زمان اللي كنتي بتشاوري له ييجي لك ده خلاص، انتي غيرتيه للأوسخ، شكرًا ليكي بصراحة، و(نيرمين) رجَّعتني نضيف تاني، أكيد مش هخون واحدة زي دي مع واحدة زيك!!..

حدقت به متفاجئةً بقسوته وصراحته، قلبها القاسي يُعتصر بين ضلوعها،

ألف سؤالٍ يجتاح عقلها عنوةً دفعةً واحدة، وكل إجاباتها تؤكد أعمق مخاوفها، ففي أعماقها علمت كيف يراها الناس، رخيصةً متمردةً ،لا تصلح لا حبيبةً ولا زوجةً ولا أمًّا، فقررت أن تتحداهم جميعًا بأن تكون ما يرونها دون خجلٍ، فهي القوية الصلبة الجريئة التي لا تعرف الضعف، لكن الآن تشعر بالضعف المكبل في أعماقها المظلمة يثور عليها، يكسر أغلاله ويطفو خارجًا باندفاع، أزاحت يدها عن كتفه وهي تستجمع آخر قواها التي تبقت لديها، لتقول له بصوتٍ متَّزنٍ متماسك:

- لا طبعًا، تبقى عبيط لو خُنتها مع واحدة زيي، بس اللي انت مش واخد بالك منه، إن واحد وسخ زيك ماينفعش غير مع واحدة زيي، علشان انت هتدمرها، أوعى تكون فاكر إني مش شايفاك كويس، عارفة إنك متكبر ومغرور علشان كده ماحدش بيطيقك!.. عارفة إنك مريض نفسي، فاكر نفسك أهم واحد وأحسن واحد، محور الكون، بتزعل أوي لما الناس تتجاهلك أو تتهرب منك صح؟ بشوفك في مكتبك وانت بتبص على زمايلك وهما متجمعين وقت الراحات، بيبقى نفسك يعزموا عليك حتى تقف معاهم، بس هما ليهم حق يتهربوا من واحد زيك، وأنا اللي غلطانة إني فضلت جنبك، بس عارف ليه؟ علشان أنا كمان مريضة زيَّك، ماستحملتش إني أشوفك مبسوط من بعدي، كان المفروض تفضل تجري ورايا، كنت هوافق بس كنت بتقل عليك علشان تعرف قيمتي، بس أنا اللي كنت عبيطة، الله

يكون في عون (نيرمين) وفي عون كل اللي حواليك!!..

تركته يبتلع كلماتها القاسية، لا يعرف كيف يردّ عليها، استدرات فانهمرت دمعاتها أخيرًا، بكاء غزير ادَّخرته على مدار سنواتٍ وراء قناعٍ ألصقه المجتمع بها فارتدته بحرفيةٍ، تاركة ورائها (أحمد) لا يعلم لمَ لا يستمتع بانتصارٍ طال انتظاره؟!.

****

أوقفت (نيرمين) السيارة أمام منزل (أحمد)، تركت يده للحظاتٍ كي ترفع ذراع المكابح اليدوية، ثم أسرعت بإمساك يده تعتصرها, و كأنها لم تشعر بأصابعه الغليظة متشابكةً مع أصابعها النحيفة منذ زمن، عيناها المتعلقتان به تلمعان بحبه، كل مرةٍ تنظر له وكأنها تنبهر به من جديد، بينما هو ينظر إلى المبنى على يمينه يتأكد بأنَّ لا شيء تغير منذ تركه قبلها بأسبوع ليسافر إلى الإسكندرية في بعثةٍ تابعةٍ لشركة البرمجة التي يعمل بها, لا يزال المبنى فاخرًا كما كان، بلونه الأصفر الفاتح، مدخله الزجاجي، والسلالم الرخامية المؤدية للمصعد الظاهر من الخارج، نظر إلى شرفتهم في الطابق الثالث فلم يرَ(تامر) ولم يرَ دخان سجائره، حتى و إن كان (تامر) في مكانه المعتاد فلن يراه من تلك الزاوية, ماذا ظن (أحمد)؟ أنَّ (تامر) سيكون في انتظاره في الشرفة يلوِّح له!.. لعله لم يلحظ غيابه من الأساس!.

أحنى رأسه على صدره يهزها يمينًا و يسارًا، علمت (نيرمين) ما يدور في رأسه, ولكنها لم تكن تعلم بأنها تعرف جزءًا منه فقط، فعقله كان منقسمًا ككفتي ميزانٍ قديمٍ صدئٍ، لا يحمل سوى الهموم، كفَّة تحمل كلمات (دلال) ثقيلة، يتذكرها فيشعر بمرارتها على طرف لسانه، يجد لنفسه ألف تفسير ليكذبها كي لا يصدق كلمةً من كلماتها، لقد كانت مجروحةً تتخبط كقطةٍ برية وقعت في الأسر، تخمش وتعضُّ بأنيابها كل مَن يقترب، يرتاح لبرهةٍ، ثم تعود له الشكوك، ماذا لو كانت على حقٍ؟!.

ضغطت على يده لتواسيه دون قطع أفكاره بكلماتٍ تعلم ألَّا فائدة منها، حتى كسر هو الصمت:

- مش عايز أطلع البيت، مش هقدر أشوفه كده تاني.

- معلش يا حبيبي... مش يمكن مع غيابك وحَشتُه ويكلمك هو؟!

- يكلمني ووحشته كمان؟!!

ابتسم (أحمد) ابتسامته الساخرة مصحوبةً بالأسى بدلًا من الثقة هذه المرة، أدار رأسه لتقابل عيناه الحزينتان عينيها المتعاطفة، وأكمل:

- انتي كده بتتكلمي عن (تامر) أخويا بتاع زمان، مش (تامر) اللي بقاله خمس

شهور مكلمنيش من ساعة ما جه مش عارف منين زي الثور الهايج وكان هيضربني! .. انتي عارفة كام مرة خرج، و يرجع كل مرة يخبط ويرزع؟! أنا لولا إني عارف إن (تامر) مش هيقدر عليا كنت خُفت يعمل فيا حاجة في مرة منهم!!.

- ماتقولش كده؛ ده (تامر) برضه.

قاطعته (نيرمين) لتوقف أفكاره من التعمق أكثر من ذلك، ثم أكملت:

- إن شاء الله كله هيبقي كويس وهيرجع أحسن، حاول بس تقنعه بموضوع العلاج النفسي.

- هحاول إن شاء الله .

ابتسم (أحمد) كي يطمئنها، ربت بيده الأخرى على يدها يوصها:

- كلميني أول ماتوصلي البيت.

ابتسمت هي الأخرى لابتسامته، ولكن القلق لم يفارق وجهها، كما لم يفارق الهم وجهه، وردَّت:

-أكيد طبعًا.

-بحبك!.

-حبيبي!! وأنا كمان بحبك!.

ترك (أحمد) يدها رغم تشبثها به، فتح باب السيارة ونزل متحاشيًا النظر لأعلى مرةً أخرى، أخذ حقيبته من المقعد الخلفي واتجه إلى مدخل المبنى يجرها وراءه, تراقبه (نيرمين) كما تفعل دائمًا، تنتظر أن يستدير فيلوِّح لها فلا يفعل، لا تشعر بالغضب منه وإنما بالشفقة عليه؛ فهي وحدها تعلم ما يدور داخل رأسه الآن، حتي دخل المصعد وانغلق الباب وراءه فلم تعد تراه، انزلت ذراع المكابح ثم انطلقت في الشارع الهادئ متجهةً إلى بيتها.

دخل (أحمد) البيت، يمسحه بنظره، هل كان يبحث عن شيءٍ متغير؟ أم كان يبحث عن أخيه؟ يرجو أن يراه دون أن يضطر إلى الذهاب باحثًا عنه، فيطمئن قلبه دون أن يظهر اهتمامه، كل شيءٍ كالمعتاد، طاولة الطعام الزجاجية بمقاعدها الخمسة، المقعد الأقرب إلى الباب متحركٌ من مكانه كما يتركه (أحمد) بعد أن يجلس عليه ليرتدي حذائه، أثاث الصالة الرئيسية لم يبدُ عليه تغيير هو الآخر، وسائد الظهر ملقاةٌ بجوار الأريكة الوفيرة كما يتركها (أحمد) عندما ينام على الأريكة ليشاهد التلفاز، بل والتلفاز مازال يعمل، خلع (أحمد) حذاءه ودخل يتفقد المنزل في تعجبٍ، الأثاث والطاولات مغطاة بالأتربة، ألقى نظرةً على الرواق المؤدي إلى الغُرف فوجد الأنوار كلها مضاءة، المنزل كما تركه قبل أن يسافر تمامًا، وكأن أخاه لم يكن

بالمنزل طول فترة غيابه!.. انتابه القلق، حاول أن يصطنع كل الضوضاء التي يمكنه إحداثها، ألقى المفاتيح على الطاولة الزجاجية، سحب حقيبته وجعلها تصطدم في كل فرصةٍ سانحة، ثم رفعها وألقى بها في يأسٍ ما إن دخل غرفته دون أثرٍ لأخيه، لوكان في البيت لكان خرج ليتفقده، زاد قلقه وبدأت الأفكار تعصف في رأسه تدفعه للهلع، سيطر عليها قدر استطاعته، خرج يسير على أطراف أصابعه، دخل غرفة أخيه المجاورة لغرفته فلم يجد سوى سريره مهندمًا على غير العادة، بل الغرفة كلها كانت مهندمة كما لم يرها (أحمد) طوال حياته؛ فلقد كان (تامر) دائمًا يحب العشوائية على عكسه تمامًا ، فبدت الغرفة وكأنها غرفته لا غرفة (تامر)، بلا ملابس ملقاةٍ في كل مكان، أو سريرٍ يبدو وكأن عراكًا كان يدور فوقه، أومكتبٍ كمكبِّ النفايات، عليه أوراقٌ و كتب وزجاجات عطر وأطباق طعامٍ وملابس متسخة، لم يعلم (أحمد) إن كان يجب عليه الفرح بذاك النظام، أم يجب أن يخاف!

تخلَّى عن حذره بعد أن سيطرت عليه مشاعره، خرج يسير سريعًا، أقرب إلى الهرولة، خرجت منه الكلمة دون أن يشعر متهدجةً، مهتزة، محملة بالمشاعر المخزنة بداخله منذ أشهر، لم تكن غاضبةً ولكنها كانت يائسةً حزينة، خائفة وراجية:

- تامر!!!

ألقى نظرةً على المطبخ، على الحمَّام، لا ينظر إلى تفاصيلٍ، هو لا يريد شيئًا سوى أن يرى أخاه، أسرع بخطاه أكثر عندما لم يجده، وقف في منتصف البيت يدور حول نفسه، يداه على رأسه, أخرج هاتفه عازمًا ترك كبريائه وراء ظهره والاتصال به، عندها وقعت عيناه على الشرفة المفتوحة، تسمَّر في مكانه للحظات.... أخفض هاتفه، أخذ خطواتٍ قليلة بدت له كألفٍ ناحية الشرفة، استند بيده على باب الشرفة الخشبي، مال برأسه إلى الداخل، يكاد يستدير ويركض، يعلم في مكان عميقٍ بعقله ما سوف يجده, خاصةً بعدما التقطت أنفه رائحة تعفُّنٍ قوية, أخوه لم يغادر قط.. أخوه كان في الداخل، وهو لا يريد الدخول وحده..

وقعت عيناه أولًا على الطاولة القصيرة المربعة، على زجاجها المغطَّى بالأتربة, فوقها مطفأة السجائر ممتلئةً بالأعقاب المنسحقة، علبة سجائر أخيه, قدَّاحته البالية، والكشكول الأنيق الذي يكتب فيه مذكراته, مرصوصةٌ في ترتيبٍ و دقةٍ لا تتناسب مع أخيه، مال برأسه أكثر، الرائحة أصبحت قريبةً لا تحتمل، حتى وقعت عيناه أخيرًا على أخيه.. ارتعش جسده بقوةٍ، اندفع إلى الوراء حتى ارتطم بالحائط خلفه، عيناه جاحظتان تكادان تخرجان من مقلتيهما، لا ترمشان، يحدِّق في أخيه الجالس على الأريكة أمامه, رأسه مائلة إلى الوراء مستندةٌ على الحائط، فمه مفتوح.. وجهه شاحبٌ متصلِّب، لا يتفاعل مع الذباب المتطاير حول شفتيه الزرقاوين أو جفنيه المنغلقتين

أو أنفه وجبهته ورأسه الصلعاء، يمسك في يده زجاجة مياهٍ بلاستيكية منسحقةٍ يقبض عليها بقوةٍ، وعلى فخذيه أشرطة دواء لم يستطع (أحمد) معرفة عددها بالنظر إليها.. ولكنه علم بأنها كلها أغلفة فارغة، فالدواء في أحشاء أخيه المتعفن أمام عينيه.

سقطت دمعةٌ حارة على خده مع أول رمشة من جفنه الأيمن، لا يزال الأيسر يقاوم، ولكن سرعان ما ضعف هو الآخر، فتسارعت الدمعات تسقط دون صوت، لم يكن يتنفس بعد، شهق بقوةٍ، خفق قلبه وكأنه سيتوقف، وضع يده على صدره بتلقائيةٍ من شدة الألم ومال إلى الأمام يتكور على نفسه، تنفس بسرعة، شهيقٌ.. وزفير، متتالٍ قصير متقطع، انتبه لوجود هاتفه في يده، فتحه، اتصل بـ (نيرمين) فأجابته بخفتها المعتادة:

- مش كان المفروض أنا اللي أك...

قاطعها (أحمد) بآخر قوةٍ تبقَّت في جسده، وقال:

- الحقيني... (تامر)... انتحر!!!.

- إيه بتقول إيه؟!!!

شرع (أحمد) يبكي بحرارة، (نيرمين) تسمع صوت نهنهته المعذبة، نادت عليه بأعلي صوتها:

- (أحمد)... رد عليا يا (أحمد), أنا جيالك، طب امسك نفسك علشان خاطري.

لم تجد منه أية إجابة، فبكت هي الأخرى، علمت من صوته كم الألم الذي يعصر قلبه، فهذا هو (أحمد) القوي الصلب, يبكي كأمٍ فقدت ابنها, نادت عليه بحرقةٍ وقلبها يتمزق من أجله:

- (أحمد) ردَّ عليا والنبي... يا (أحمد)!!.

قطعت الاتصال، ثم حاولت أن تتصل به مرةً أخرى فلم يجبها، اتصلت بالإسعاف وأخبرتهم عنوان (أحمد) بما تبقى لديها من عقل، لم تكن تعلم أكانت تطلبهم لإنقاذ (تامر), أم لـ (أحمد) تحسبًا لما قد يحدث له، ثم أخذت أول منعطفٍ عائدةً له، تسابق الزمن، ترجو الله أن يتماسك حبيبها حتى تصل إليه.

أوقفت (نيرمين) السيارة في منتصف الطريق وخرجت منها تهرول، عبرت الطريق دون أن تنظر حولها فكادت سيارةٌ أن تصدمها، أطلقت نفيرها بقوة، فلم تهتم (نيرمين) بل لم تسمعه من الأساس، نظرت إلى شرفة (أحمد) دون تفكير، ترجو أن تراه بخير، ولكنها لم تر شيئًا, صعدت السلالم غير مباليةٍ بآلام عظام وعضلات رجليها وظهرها، فهي لم تكن معتادةً على أي مجهودٍ، وقفت أمام باب البيت تضربه بكل قوتها بذراع

وبالآخر تضغط به على الجرس الكهربائي دون هوادةٍ، شعرها مُبعثر في كل اتجاه، ملتصقةٌ بضعة خصلاتٍ بوجهها المبتل بالعرق، قميصها بعضه داخل الجينز الضيق، وبعضه خارجه في عبث، تصرخ باسم حبيبها تترجاه أن يفتح الباب لها..

سمعت (نيرمين) صوت خطواتٍ وراء الباب فهدأت لتسمع أفضل، انفتح الباب ليكشف عن رجل يشبه (أحمد)، ولكن لا يمكن أن يكون هو، هاتان العينان المتورمتان الغارقتان في دموعهما، ذاك الفك المتدلي، تلك الأنف السائلة، الظهر المنحني، الأكتاف المتدلية, يظهر الضعف والانكسار بكل تفصيله في لغة جسده التي لا يحتاج إلى خبيرٍ ليراها, أما (أحمد) الذي عرفته لا يمكن أن يتحطم هكذا, شعرت وكأنه سيسقط ، لم تجد كلماتٍ ولم تحتجها على أية حالٍ، ارتمت في حضنه، ذراعاها ملتفان حول خصره، رأسها مدفونة في صدره، تشعر بتهدج أنفاسه، تسنده كي لا يسقط، بدلًا من التعلق برقبته..

طال اشتبكاهما يبكيان دون حديث، لم تعد قادرةً على تحمل جسده الضخم متكئًا عليها لحظة أخرى، أجلسته على أقرب مقعدٍ، لحسن حظها كان جاهزًا لجلوسه، وجلست هي على ركبتيها تلتقط أنفاسها، تنظر إليه بأعين باكيةٍ, قلبها منفطرٌ عليه, ثم قالت أخيرًا:

- هو فين؟

ظلَّ (أحمد) هائمًا بنظره في الأرض لا يقوي على النطق، رفع ذراعه بضعف مشيرًا إلى الشرفة، حدقت بها للحظاتٍ، استندت على رجليه لتقوم في تردُّد، كادت تسير ناحيتها قبل أن يمسك (أحمد) ذراعها بقوة يعتصره، كادت أن تسحب ذراعها من يده للحظةٍ ولكنها قررت أن تحتمل الألم, عادت بوجهها إليه لتجده يحدق بها، شعرت به ينظر لأعماقها وتنظر لأعماقه، شعرت بكل ألمه وحسرته دفعةً واحدة، اعتصر قلبها لنظرته المتألمة، هزَّ (أحمد) رأسه بالنفي ففهمت أنه لا يريدها أن ترى (تامر)، عادت تجلس على ركبتيه واضعه خدها على فخذه، فوضع يده على شعرها، شيءٌ بداخله دفعه لمواساتها مع أنه هو مَن كان يحتاج إلى الاحتواء, ضمَّت ساقه إلى صدرها وتركت دمعاتها لتنساب على بنطاله.

****

٩

وقف في العزاء، أعمامه وأخواله يكملون الصف عن يمينه ويساره، يجلس للحظاتٍ ليستريح على المقعد الجلدي الأسود - المطابق للون حلته الرسمية ورابطة عنقه- قبل أن يقف مرةً أخرى ليصافح المعزِّين، يعتصرون يده، يربتون على كتفه، يحتضنونه بقوة تزعجه، وكأن قوتهم ستظهر مدى حزنهم!. وكأنَّ مدى حزنهم سيغير من مشاعره شيئًا.. «لو احتجت حاجة، إحنا جنبك».. «مش محتاجين نوصيك تاخد بالك على نفسك».. «إحنا كلنا جنبك».. كلمات تمر على الأذن مرور الكرام، ولو كان لها تأثيرٌ فهي تشعره بعكسها تمامًا، هو وحده، و الجملة الأثقل على قلبه: «ربنا رحيم وكلنا بنغلط.. ادعي له ربنا يغفرله».. أو ما يختلف عنها في الكلمات، ويشبهها في المعنى، يرى في عيونهم نظرةً لم يستطع فهمها ولكنه كرهها، هل هي شفقة على حاله؟ هل هي قسوةٌ أكثر منها حزنًا لأنَّ أخاه منتحرٌ؟

صوت القرآن مرتفعٌ يتردد في القاعة، الشيخ يكرِّر ويكرر، يصرخ فيه أحدهم بعد كل آية: «تاني يا مولانا الله يفتح عليك».. فيكرر للمرة الثالثة، والرابعة، مَن ذلك الذي يطلب أن يكرر؟ ولمَ يتردد صوته في صدىً مصطنع؟ يصدق فيقوم الجالسون يتدافعون للوقوف في صفٍ لا يكاد أن

ينتهي حتى يمتليء، يسلِّمون ويقبِّلون ويتمتمون بكلامهم عديم القيمة، يخرجون فينسون (أحمد) و(تامر) وكل ما يتعلق بهم، إذن، فلمَ يقف (أحمد) هنا يخدمهم أكثر مما يستفيد منهم؟! إن كان هو لا يطيق الوقوف بينهم, وهم يحصون الدقائق بل الثواني للمغادرة إلى حياتهم، فلم تلك الرسميات، وتلك المظاهر، وتلك التجمعات الثقيلة على قلبه؟.. راقب المضيفين يتجولون في خفةٍ وهمةٍ بين الجالسين، يوزعون أكواب الشاي والقهوة والينسون، وزجاجات المياه الباردة، قلَّ عدد القادمين مع اقتراب موعد انتهاء العزاء، العرق يتصبب على جبينه غزيرًا، يشعر بربطة العنق تضيق عليه أكثر وأكثر، خشونة قميصه يحك رقبته كحبل مشنقةٍ شائك، حزين من أعماقه، منزعجٌ من الضوضاء والمجهود، مستنكرٌ من النفاق والتمثيل، هاهم من بكوا ورسموا الحزن على وجوههم وهم يسلمون عليه، يحتسون المشروبات ويدخنون السجائر، بعضهم يتحدث والبعض الآخر يقلِّب في هاتفه، كل يهز أقدامه ويتلوى في مقعده لا يحتمل، يعلم ما بداخلهم، فقد كان في يومٍ في مكانهم!.

تذكَّر يوم وفاة أبيه، يوم وقف طفلًا في آخر نصبة العزاء يبكي، فغير مسموح له الوقوف في صف مستقبلي القادمين فقد كان لا يزال صغيرًا، تذكر يوم قسا على نفسه وعنَّفها ليكف عن البكاء أمام الرجال الآخرين فهم أشداء لا يبكون، إذن فهو لن يبكي مثلهم، فقضى عمره دون بكاءٍ, وتذكر يوم وفاة

أمه عندما انهار (تامر) أمام الناس يبكي كالأطفال لا يستطيع الوقوف، فسقط بجواره تمامًا على المقعد، وجعل كل الرؤوس تلتفت لهم، يومها استند عليه (تامر) مغادرًا العزاء بعد أن انهار تمامًا، ولكن (أحمد) لم يبكِ أمام أحد، انتظر وتحمَّل حتى أدخل (تامر) السيارة وركب هو في مقعد السائق، وانطلق تاركًا وراءه الضوضاء والزحام والأنوار، وما إن تأكد أنه بعيدٌ عن عيون الناس الفاحصة المدققة، أوقف السيارة وسحب رأس أخيه ووضعها على صدره، فازداد بكاء (تامر) حرارةً، وبكى هو الآخر من أعماقه، بكاءً متجمعًا محبوسًا منذ كان طفلًا، وأطلق له العنان.

أما اليوم فهو لم يعد يقوى على إخفاء مشاعره، بكى أمام (نيرمين) وأمام ممرضي الإسعاف وهم يحملون أخاه، متأففين من رائحته ومظهره، وبكى أمام أقاربه في المستشفى، وبكى في العزاء، فكان يهدأ ثم يعاود البكاء مرةً أخرى، حتى تعب قلبه وتهدجت أنفاسه، فسكت وانتهى عندما زاد عدد الحاضرين ولكنه عاد يتذكر مع مرور الوقت وقلة عددهم، أصبح القارئ يطيل بين تصديقه، يعيد ويكرر ويتردد صوته وصداه وصدى صداه، فيهلل الرجل مرة أخرى ويدعو له ويطالبه بالتكرار، الهواء عليل ولكنه كان غير كافٍ ليخترق حلة (أحمد) وقميصه ليبرد ويجفف جسده الغارق في عرقه، لم يتحمل أكثر ولم يُطق البكاء أمامهم مرةً أخرى، خرج من العزاء محطمًا ومنحني الظهر، أرخى ربطة عنقه وفتح الزر الأول من

قميصه، وتنفس بعمقٍ، تؤلمه رئتاه المنهكة من البكاء، أشعل سيجارته وأخذ يدخنها بغلٍّ, عندما رآها.. خرجت من باب السيدات، عرفها أول ما رآها، كيف لا يعرفها وقد قضى سنواتٍ يكرهها؟ كيف لا يتذكر صورتها وقد قلبت حياة أخيه؟ قادته كالحمار ثم ألقت به للهاوية، كيف لا يميزها وهو يحمِّلها مسئولية وقفته تلك، غطاء شعرها الأسود لا يستر شعرها الحريري أسفله، كما لا تخفي ملابسها السوداء جسدها الممشوق، تمسح دموعها وتجفف أنفها بالمنديل، فيرى حلق أنفها يلمع أسفل نور المصباح الكبير المتدلي في المدخل، رآها متجملةً فازداد غضبه، رغم حزنها الواضح وحالتها المتدهورة، تكاد تسقط بين الخطوة والأخرى، طاقتها التي كانت لا تنفذ الآن لا تكفيها لتقف من دون أن تترنح، بدلًا من مشيتها المعتادة المليئة بالوثب والشب، و لكنه لم يعرف ولم يرى كل هذا ليلحظ التغيير، هو رأى صورتها على هاتف أخيه وهاتفه عندما بحث عنها مرارًا بعدها، وأصدر حكمه عليها منذ ليالٍ طوال مرت يتعذب لعذاب أخيه، وهذا كان يكفيه.

دبَّت فيه العافية متنشطًا، اشتد عوده بعدما ارتخى، اتسعت عيناه فهربت منها الدموع، حمراوان غاضبتان مشتعلتان، اقترب منها كالثور الهائج يكاد أن يصدمها برأسه فيكسر عظامها، عقله غائبٌ تمامًا بعد أن تملَّك منه الغضب كليًا، ألقى سيجارته عليها بكل قوةٍ، يرجو أن تخترقها كطلقة

مدفع، أصابت يدها محدثة شرارة متطايرة حولها، صرخت فزعًا وهي تقفز إلى الوراء لا تعرف ما الذي يحدث، حزينة ومندهشة وخائفة، نظرت إليه بعينين تكفي لتجعله يتوقف؛ لو رأى ما فيها من حزن لاحتضنها و بكى، ولكنه صرخ بصوتٍ مرعب وغاضب، تردَّد في آذان كل من حولهم:

- إيه اللي جابك هنا مش كفاية اللي عملتيه؟!

حدَّقت به يقترب منها، صوته شلَّ جسدها وتفكيرها، جسده الضخم وحلته السوداء يزيدان مظهره رهبةً، ويزيدان نبض قلبها، يضخ الدم والأدرينالين بكل جهده لعلها تركض، فلا تستجيب له، وقف (أحمد) أمامها مباشرةً يلوح بيده وهو يكمل متجاهلًا خوفها:

- أنا ماشوفتش بجاحة في حياتي كده!! لو عليا أقتلك وأدفنك جنبه يمكن أرتاح!..

تسمع كلماته ولا تستطيع الرد، كتفاها مرفوعتان في محاولةٍ منها لإخفاء وجهها، تحتضن حقيبتها، مائلة للوراء لتبتعد عن ذراعيه الملوحتين قدر ما تمكنت، تلعن قدميها لغوصهما في الأرض دون تحرك.

- بتعمل إيه يابني بس؟ وحد الله!!.

صرخت خالته من ورائها فور رؤيته يكاد يضربها، ركضت بما سمح لها

جسدها السمين الضعيف من كِبر السن، كل مافيها يهتز أسفل عبائتها السوداء، فكانت أول من يصل لتقف بين (أحمد) و(ميار)، حاولت دفعه فانتهى بها الحال ترجع هي للوراء وتدفع (ميار)، احتضنت (ميار) بحرارة، تشعر بجسدها يرتعش بقوة، وتتشبث هي بعباءة خالته بأطراف أصابعها وتخفي وجهها في صدرها، تهرب عن عالم لم تعد تفهمه، كل ما فيه إما يحزنها أو يصدمها أو يخيفها، تنطفئ شعلتها يومًا بعد يوم منذ أن قابلت (تامر) ورفضت حبه، حتى تحطمت عندما علمت بأمر انتحاره، استجمعت كل ما تبقى من عزيمتها لتحضر عزاءه قبل أن تستسلم للانكسار ما تبقى من حياتها، فقابلت (أحمد) في أسوأ لحظة تمر بها في حياتها، بينما هي في قاع حزنها وعذابها وضعفها، تستمد ماتجده من طاقةٍ من حضن امرأة لا تعرفها لتظل واقفة على قدميها، لتهرب من صدمةٍ لم تتوقعها ولم تحتملها.

- استهدى بالله يابني مش كده، البنت هتموت من الخوف حرام عليك!..

استعطفته خالته وهي تكاد تبكي هي الأخرى، ربتت على ظهر (ميار) لعلها تهدأ، صرخ هو مقاطعًا:

- ماتموت ولا تغور!! مالكيش دعوة يا خالتي.

- يابني مش كده عيب، جرالك إيه؟! لا إله إلا الله!!.

تجمعت بضعة سيدات حولهم يحاولون تهدئة (أحمد), لا يفهم أي منهن ما يحدث، بينما اكتفى الباقي بالمشاهدة من بعيد، دقائق قليلة وحضر أعمامه هم الآخرون من العزاء، بعضهم يسأل عما يحدث، وباقيهم يعيد الناس إلى العزاء، فلا تكبر المسرحية وتزداد فضيحتهم، يكفيهم انتحار أحد أفراد أسرتهم، يشدون جسد (أحمد) الضخم فلا يتحرك ولا يهدأ، لا أحد يفهم ما يحدث.

دفعت (نيرمين) سيدة هنا وهناك حتى وصلت إلى منتصف الحدث، أمسكت بذراع (أحمد) تدفعه إلى الوراء دون أن تسأل، فهي تعلم عندما يتملك الغضب (أحمد) فلا يستمع لصوتٍ ولا ينصاع لشخص يحاول إبعاده، وحدها هي التي تؤثر عليه في حالته تلك، رجته بصوتها المهتز و قالت:

- (أحمد) أرجوك كفاية، وتعالى معايا بس... (أحمد) علشان خاطري تعالى معايا.

لم يتحرك ولم يستمع لها هي الأخرى، ألقت نظرة وراءها فرأت (ميار) فزعةً تتشبث بحضن خالته كالأطفال، عرفتها وفهمت كل شيء، وضعت يدها الناعمة على لحيته تشدها كي ينظر إليها، نظر لها فوجد عينيها متعلقة به، الدموع تملأهما وتسيل، أنفها شديد الاحمرار، وجهها شديد الشحوب، رأى حزنها ودهشتها، رأى تصنُّعها للقوة الذي يراه كلما وقفت

أمامه وهو مشغول عنها بغضبه، شعر بيدها تشد لحيته والأخرى تدفعه، سمع كلماتٍ مَن حوله يتسائلون ويذكرون الله يستعيذون به من الشيطان، نظر يتفحَّص المتجمعين حوله، ترك جسده لـ (نيرمين) تبعده بعدما رأى الشفقة والاشمئزاز والغضب في عيونهم، جلس في سيارة (نيرمين) ينتظرها, تتبادل بضعة كلماتٍ مع خاله وعمه وخالته على بعد خطوات منه، ثم عادت إلى السيارة وانطلقت، تنقذه منهم ومن الآخرين ومن نفسه..

****

استند عليها، جسده الضخم كالصخرة، يكاد يسحقها هي الزهرة الهشة، لا تعلم كيف وجدت في أعماقها تلك القدرة لتكون قويةً تلك المرة، وصلا إلى باب منزله، أدارت المفتاح وفتحت الباب في تردُّد، عاد لبكائه عندما رأى البيت، الذكريات تعصف بقوةٍ في عقله تعذِّبه، دخل أخيرًا مستسلمًا، ألقى بجسده على المقعد المقابل للباب -الذي يجلس عليه دائمًا عند دخوله البيت و قبل خروجه- رأسه مستندة إلى الوراء، ذراعاه ملقاتان لا تستجيبان لمحاولاته للحركة، هل غلبه التعب؟ أم هو الحزن يستغل ضعف مقاومته أخيرًا ليسيطر عليه؟.

نظرت (نيرمين) حولها في تردد، متعبة بعد يوم لم تظن أنها ستمر به قط،

دائمًا ما ظنت أنها ستكون الضعيفة المحطمة، و(أحمد) سيتحمل ضعفها، دائمًا ما شعرت بالأمان وهي تعلم أنه موجود بصلابته التي لا تنكسر، أما الآن وهي تراه هكذا، عندما وجدت نفسها مجبرة أن تتقدم هي لتحمله وتحمل نفسها، شعرت بالمسئولية تُلقى بلا إنذار على ظهرها لتحنيه، وتزيد عمرها عقود، هي الطفلة المتشبثة بيده في حبٍ بريء، شعرت مثل ذاك الشعور بعد كل عراك له، كرهته فلم تحتمله، أما الآن فهي تشعر به أضعافًا مضاعفة.

كانت تلك أول مرةٍ لها معه في بيته وحدهما، فازدادت توترًا، هاتفها يهتز ربما للمرة الخمسين، أمها تتصل بها بشكلٍ متصل منذ تركتها هي وأباها وراءها في العزاء، لتهرب بـ (أحمد) أمام الجميع، لا ترد عليها فهي تعلم قدر المشكلة التي أوقعت نفسها بها، ألقت نظرةً على الشرفة فتذكرت (تامر) عندما رأته أول مرةٍ بعد حضور رجال الإسعاف، تذكرت صرختها المكتومة وتجمُّد الدماء في عروقها، هي لا تزال صغيرةً على كل هذا، وروحها أصغر من سنها، وخبرتها خبرة رضيع، ولكنها لن تنكسر الآن، ليس أمام (أحمد), جلست على ركبتيها وساعدته على خلع حذائه، شدَّته من ذراعه فقام معها، تعرف البيت فقد زارتهم أكثر من مرةٍ، قادته عبر الرواق المظلم، تكاد تقسم أنها تشعر بـ (تامر) يسير وراءها، تريد الالتفات، تريد الركض إلى الغرفة وإغلاق الباب وراءها لعله يبقي خارجًا، وضعت رأسها

على كتف (أحمد) تستمد منه القوة والثبات، وضعته على سريره وظلت واقفةً بجواره تربت على ظهره حتى توقف عن البكاء، تمتمت:

- هاروح أعمل لك حاجة تاكلها... غيَّر هدومك على ما آجي.

خرجت وأغلقت باب غرفته وراءها فازداد خوفها، أخرجت هاتفها وأضاءت الكشاف بحثًا عن زر الإضاءة فوجدته في منتصف الرواق، سارت بتردد تتلفت حولها، ملتصقة بالحائط البارد حتى وصلت له، أضاءت كل المصابيح التي تمكنت من إضاءتها..

«ليه الست اللي نضفت قفلت نور النص ده من الشقة بس؟».. ظلَّ هذا السؤال يتردَّد في رأسها، لكن على الأقل كانت مصابيح نصف الاستقبال مضاءة، والقرآن يتردد من التلفاز في المنزل كله، فاطمأنَّ قلبها قليلًا.

وقفت تعد له شطائر الجبن، تتلفت حولها بين الدقيقة والأخرى، تتتوقع رؤية (تامر) وراءها في كل مرة، هاتفها لا يتوقف عن الاهتزاز، منهكة قلبها مفطور، خائفة كالأطفال بينما تحمل مسئولية الكبار، وخائفة كأم على (أحمد)، لا تعلم كيف ستخرجه من حالته تلك، وضعت الطعام والعصير والماء على صينية بلاستيكية، احتجت معدتها على الطعام المارِّ أمامها دون أن تأكل شيئًا منه، فذكَّرتها أنها أيضًا جائعةٌ، لتصبح حالتها أسوأ ما يكون بكل معنى الكلمة، تجاهلت كل ما بها وحملت الصينية وفوقها

الطعام إلى (أحمد)، لتجده جالسًا على سريره بحلته الرسمية دون أن يغير ملابسه، وضعت الصينية على الطاولة المجاورة لسريره، وجلست هي بجواره تمد له الشطيرة تترجاه أن يأكل ويشرب، بينما تتضور هي جوعًا!.

أكل (أحمد) ما أكل ثم ألقى برأسه جانبًا معطيها ظهره، ربتت عليه فتكوَّر على نفسه أكثر، كم أرادت أن تنام بجواره تحتضنه حتى يهدأ، ولكنها كانت فيما يكفيها من مشاكل تنتظرها، جلست بجواره ويدها على كتفه، تخبره بأنَّ كل شيءٍ سيكون بخير، تحاول التماسك قدر الإمكان، تضع كل ثباتها في صوتها كي لا يسمع فيه حزنها، لا تعلم إن كان يسمعها من الأساس، حتى ارتفع صوت أنفاسه معلنًا نومه بعمق.

وقفت على باب الغرفة تنظر إليه نظرةً أخيرة متفحصة، تكاد تعود لتنام بجواره، استدارت أخيرًا وركضت فزعًا إلى باب المنزل، ثم إلى سيارتها عن طريق السلالم، لا تجرؤ على الدخول للمصعد المغلق وحدها، اهتزَّ هاتفها مرة أخرى، تنهدت مستعدةً لما سيحدث، قبلت المكالمة من جهتها ووضعت الهاتف على أذنها دون النطق بكلمة، فهي لم تحتج، فأمها على الطرف الآخر صرخت عندما بدأت المكالمة:

- انتي بتستهبلي يا (نيرمين)؟!! انتي فين دلوقتي حالًا؟!

- أنا تحت بيت (أحمد) وصلته وراجعة دلوقتي.

- وإيه اللي وداكي بيت (أحمد) لوحدكم؟! ومابترديش عليا لما بكلمك ليه؟

- ماما.. لو سمحتي أنا مش قادرة أتكلم..

لم تستطع الحفاظ على ثباتها أكثر، عاجلها البكاء الهيستيري فلم تستطع إكمال جملتها، صمتت أمها هي الأخرى عندما سمعت صوت نحيبها، ثم قالت بهدوء:

- خلاص يا حبيبة ماما طيب ماتعيطيش، مافيش حاجة.. إحنا خُفنا عليكي بس أنا وبابا، قولي لي انتي فين نيجي نجيبك؟.

- لا ياماما، أنا خلاص طالعة بالعربية أهو وجاية ماتخافوش.

- طيب يا حبيبتي، بس والنبي خللي بالك من نفسك واهدي.

- حاضر يا ماما.

أغلقت (نيرمين) الهاتف وأطلقت العنان لنحيبها يعلو، وشهقاتها تزيد قوةً، تكاد تختنق أو أن يتوقف قلبها، لم تعلم كم مرَّ من الوقت وهي جالسة في سيارتها تبكي، فلقد تراكمت مشاعرها التي قاومتها طيلة اليوم حتى أصبحت لا تقوى على المقاومة.

******

١٠

حدَّقت (الدكتورة) بصورة (تامر) الظاهرة على شاشة هاتف (علاء)، كيف لا تتذكره ولم يمر على خبر انتحاره سوى بضعة أشهر؟! تري الآن الشبه بينه وبين (علاء) رغم اختلافهما كليًا، إلا أنك تستطيع معرفة أنهم إخوةٌ بسهولة، الرأس الكبيرة والجبهة العريضة، اللحية الكثيفة والعين الواسعة والأنف الغليظة، تذكرت أول مرةٍ دخل عليها، مختلف كل الاختلاف عن أخيه، جسده فارع الطول، رأسه مرفوعة أكثر من الطبيعي، خطاه مترددة وكأنه يحصيها في رأسه، تكشف اصطناع ثقته الزائدة، فلم تحتج الاستعانة بخبرتها وتركيزها أو وقتها لتعرف أنه يمثِّل، ملابسه منضبطة ربما أكثر من اللازم، قميص ضيق لونه أصفر باهت، نهايته بداخل بنطاله القماش الأسود، حزام جلدي بقفل معدن لامع كبير، وحذاء جلدي أسود شبه رسمي، لحيته مصففة جميلة -ربما هي الشيء الوحيد الذي نال إعجابها- يزين وجهه بابتسامةٍ باهتة، كانت من المفترض أن تظهر ثقته، فأظهرت رداءة تمثيله لدور الواثق، الابتسامة الحقيقية تحتاج الوجه كله، أما هو فكان يبتسم بشفتيه فقط، بينما باقي وجهه كان متجمدًا يكاد يكون متذمرًا..

لا تزال تتذكر كل إجاباته على أسئلتها، إما أن يبدو صادقًا وهو يقول لها

إنه وحيد وبائس بالخطأ، وإما أن يعود لتصنُّعه عندما يكذب, فيقول ارتبطت بأربع نساءٍ وتركتهن، وكنَّ يحببنني ولكني لم أرتح معهن، لدي العديد من الأصدقاء، لو كانت رأسه منخفضةً بعض الشيء، ولو كان ظهره مفرودًا بشكلٍ طبيعي، ولو كان هناك روحٌ في ابتسامته السخيفة، لو لم تكن يداه متكورتين في قبضتين محكمتين تعتصران مسندي المقعد، ولو لم يهز قدميه الطويلتين في كل اتجاه، لربما كانت صدقت (الدكتورة) كذبته، ولكنها قرأته وفهمت ما الذي يحاول أن يقوم به، كرهته، ولكنها حافظت على مهنيتها وحبست ضحكاتها، لا تستطيع الانتظار حتى تنتهي الجلسة لتخبره كم هو بائس، وهذا ما فعلته يومها تمامًا.

لم تنسَ يومها حين تغيرت ملامح وجهه مع كلماتها -رأيها في ملبسه ومظهره وطريقته.. «أنت ممثلٌ فاشل يا صديقي، جسدٌ بلا روح»- ظهره وهو ينحني، رأسه وهي تعود لمكانها الطبيعي مطأطاة، تكاد تغوص في كتفيه لو أمكن، ابتساماته وهي تتحول إلى الامتعاض، وجهه وهو يتفجر غضبًا، شعرت بالأسى عليه، ولكنها تكره التمثيل والخداع أكثر من أي شيء، فخرج رأيها قاسيًا متبلدًا، قام (تامر) وخرج يومها دون ردٍّ، ليعود بعدها مرةً أخرى بعد ثلاثة أسابيع بمظهر مختلفٍ، ومشية مختلفة، وإجابات مختلفة؛ فكرهته أكثر، وكان ردها أعنف وأشد قسوة.

كل مرةٍ يخرج من عندها ثائرًا، تشعر بالشفقة عليه، ثم يعود بمظهر أسوأ،

وأداء أغرب يشعرها بالغثيان، بدأت ترى بوضوح كم هو مختلف، كم هو مريض، يزداد اضطرابه جلسةً بعد الأخرى، الثالثة، الرابعة، الخامسة، لم تعتد على عودة عملائها، فهم يأتون مرةً أو مرتين، شعرت بالخوف منه وعليه، فقرَّرت أن تكون أكثر صراحةً، وأكثرتعمقًا، فهو يريد رأيها، ستخبره إياه بعدما رأت ما بداخله بحق جلسة تلو الأخرى، أخبرته بأنه كالرجل الآلي رديء الصنع، أخبرته كم هي بائسةٌ محاولاته، و كم هو مخيف، اضطرابه النفسي والعقلي ظاهر للأعين المجردة، نصحت بأن يغير طريقته، أن يعود لطبيعته فتعود ملامحه وتعبيرات وجهه إلى الحياة، أن يكون له (كاريزماه) الخاصة، كاريزما حقيقية لا متكلفة، حينها يمكنه أن يبحث عن مظهرٍ يليق به، ربما ملابس أقل صخبًا وأكثر طبيعية، فالملابس ليس مطلوبًا منها أن تلفت الانتباه لغرابتها أو لعدم اتساقها مع المكان، وأخيرًا، نصحته بأن يذهب لطبيب نفسي!

خرج يومها من عندها جسده يرتعش، وجهه مظلمٌ بعدما وقف مستندًا على مكتبها لدقائق يحدق بها، ظنت للحظة أنه سيهاجمها، لتسمع بعدما خرج صوت (محمود) وهو ينادي عليها بالخارج، ثم صوت شيءٍ يسقط بقوة، خرجت من غرفتها لتجد (محمود) ينهض من على الأرض، ويركض خارجًا من العيادة، فخرجت وراءه هلعةً، لتجده ملقىً على الأرض على ظهره لا يتحرك، عيناه مغمضتان، جفناه يرتعشان، و(تامر) يسعى خارجًا

مبتعدًا بخطاه الواسعة، التفت إليهما مرةً أخيرة، التقت عيناه المشتعلة بأعين (الدكتورة) المشمئزة منه، جالسة على ركبتيها، تربت بيدها على وجه (محمود) المغشي عليه كليًّا بعدما لكمه بلا سبب! ثم انعطف (تامر) ليختفي من أمامها قبل أن يقع في مشكلة.

عادت من رحلة ذكرياتها على صوت هاتفها يرن على المكتب، نظرت إليه في حماس، شعرت بالأمل الزائف فجأة، قفزت من مقعدها وصرخت، فكتمت اللاصقة كلماتها مرةً أخرى، أمسك (أحمد) هاتفها يتفحص اسم المتصل، تعلقت عيناها المتألمة بآخر أملٍ لها في يد الوحش الواقف أمامها، قال دون أن ينظر لها ليعيدها إلى أرض الواقع:

- ماتتحمسيش أوي كده لسه مش هتهربي مني بالسهولة دي!!.. ده (محمود) شكله أهو عرف إنها اشتغالة.

ابتسم(احمد) ابتسامةً شيطانية مخيفة, وضع يده داخل معطفه، لتخرج حاملة سكينًا كبيرًا, صرخت (الدكتورة) عدة صرخات متقطعة مكتومة، متأرجحة في مقعدها يمينًا ويسارًا، تضرب ظهر المقعد برأسها وأرجله بقدميها، اقتربت يد (أحمد) منها، يضع السكين اللامع العريض على رقبتها، هدأت كي لا تجرحها، حدقت بها، حاولت أن تبعد جسدها عنها قدر استطاعتها، فيقربها (أحمد) منها، شعرت بأنها كفأرٍ في زاوية ينظر إلى

قاتله، يقرب العصا، و يلوح بها لينهال على رأسه الصغير، قال لها (أحمد):

- هاتصل بيه تاني، وهتقولي له إن كله تمام.. لو حسيت بحاجة مش هنكمل كلامنا، ولو مكملناش كلامنا، هاقتلك، ومش هيلحق يوصل يلحقك، تمام؟

انهمرت دموع (الدكتورة)، شعرت بضعفها أمامه، فهي التي عاشت حياتها كلها قويةً أمام الجميع، متمردة، لا تخاف أحدًا، ولا يجبرها أحد على شيء حتى أبويها، هي التي اختلفت عن باقي صديقاتها، لا تحتاج إلى أحد، لا صديق ولا زوج - strong independent woman -بحق، كل ما يهمها هو سهراتها، وعملها الذي لا يمت لدراستها للتجارة بصلة، تمرَّدت على دراستها الروتيينية وعملها الروتيني، لتختار «كريرها» بنفسها، فخورةٌ بفكرة عيادتها المبتكرة التي اثبتت نجاحها مع كثرة عملائها، فزادها هذا غرورًا وتمرُّدًا، فترفض حبيبًا لأتفه الأسباب ولا تنظر إلى الوراء، وتقاطع صديقةً لفعلٍ أو كلمة لم تعجبها، فلا يغير رأيها شيء أو أحد، فهي قويةٌ فخروة بقوتها، مهما كلف هذا من ضحايا، تبني مظهرها على حسابهم!.

لم يتأثر بدموعها، فبعدما قرأ مذكرات أخيه، ورأى كم كانت قاسيةً معه، ككرة هدم تتأرجح، لا تسأل ما إن كانت تكسر أسمنتًا أم رخامًا أم زجاجًا، قرر أنه لن يشفق عليها مهما ترجَّته، هي من قتل أخاه حقًا بعدما دعسته كالصرصور فى طريقها دون حتى أن تلحظ، عنَّفها بجدية قائلًا:

- اخلصي ولا أقتلك دلوقتي وأخلص؟ خليني اديكي فرصتي يمكن تقنعيني.

لم تجد مفرًا، فهي الآن مجبرة وعليها أن تنصاع لإرادته أيًّا كانت, أومأت مستسلمةً لأول مرةٍ منذ دهر، أبقى السكين على رقبتها وأزاح اللاصق بعنفٍ عن فمها، كتمت هي صرختها بنفسها هذه المرة، أغلقت جفنيها بإحكامٍ وجزَّت على أسنانها متحملة، ضحك (أحمد) في نشوةٍ مريضة، وضع هاتفها أمام وجهها فانفتح قفل الأمان، اتصل بـ (محمود) ووضع المكالمة على السمَّاعة الخارجية، رنَّ الهاتف بضعة مرات قبل أن يجيب (محمود) وهو يلهث، وصوت دراجته النارية واضحٌ بجواره:

- يا دكتورة حضرتك كويسة؟!

- آه يا (محمود) أنا تمام.. مامتك أخبارها إيه؟

- كويسة، وطلع مافيش حاجة الحمد لله.. تقريبًا كده كان مقلب..

كادت أن تخبره بأنه لم يكن كذلك، فهي مكيدةٌ ليتركها وحدها مع المجنون الجالس أمامها، ووقع فيها بكل سهولة، تذكرت السكين الموضوعة على رقبتها وردت في طبيعية:

- تقريبًا كده، يلا المهم إنها كويسة

- أجيلك يا دكتورة؟

- لا يا (محمود) أنا خلاص خلصت الجلسة، وقاعدة شوية في العيادة مع نفسي.

- طب الحمد لله.. أصل (علاء) ده كان غريب، قلقني أول ما دخل.

تمنَّت الدكتورة لو يراه (محمود) الآن، تمنَّت لو صدَّق مشاعره وجاء لها دون أن تطلب منه، نظرت لـ (أحمد) الذي اضطربت ملامحه قليلًا، خافت أن يشعر بشيءٍ فيقتلها، فردت بمرحٍ:

- عيب يابني الراجل كان محترم.. يلا علشان عايزة أقعد مع نفسي شوية.. أشوفك بكرة .

خرجت جملتها الأخيرة صادقة، راجية، ولكن..هل ستراه مرةً أخرى؟!

******

١١

نقرت (نيرمين) على الباب، تنهدت بعد صعودها لثلاثة طوابق على السلم، عدلت من شعرها المتبعثر وملابسها السوداء، جففت عينيها للمرة الألف، ثم أنفها شديدة الاحمرار، وأخيرًا وجنتيها الشاحبتين، فتح (أحمد) الباب، وقف شارد العينين المنتفختين، لحيته شعثاء، شعره القصير غير مهندم، لا يزال يرتدي قميص وبنطال حلته الرسمية منذ أن تركته قبلها بيوم، رائحة عرقه تصل إلى أنفها منذ أن تأرجح الباب منفتحًا أو ربما قبلها، يد مستندة على الباب، ويد أخرى تحمل مذكرة سوداء مزينة بأشجار ملونة، يضمها إلى صدره، تعلقت عين (نيرمين) بها لا تعرف ما تكون، تشعر بها مألوفةً لها، ثم تذكرتها، لقد رأتها أمام جثة (تامر) عندما دخلت مع رجال الإسعاف يومها.

- أخبارك إيه دلوقتي يا حبيبي؟

اكتفى (أحمد) بايماءة من رأسه أن.. «أجل أنا بخير».. استدار يجرُّ قدميه في خطواتٍ صغيرةٍ واهنة، عاد إلى أريكة صالة الاستقبال، صوت القرآن ما يزال يتردد من التلفاز، تبعته (نيرمين) بعدما دخلت من دون إذن وأغلقت الباب وراءها، لا تعلم ما عليها فعله أو قوله في موقفٍ كهذا.

جلس (أحمد) يقرأ المذكرات، تدمع عيناه قليلًا، يبتسم من حينٍ إلى آخر، يندهش، يغضب، ثم يعود إلى بكائه الهادئ، تراقبه (نيرمين) في أسى، لا تعلم كيف تنتشله مما هو غارقٌ فيه، لا تجد الكلمات أو الفعل المناسب لتهدئته، شرد ذهنها مع طيلة الصمت، تستعيد بكاءها ليلة البارحة في حضن أمها كما فعلت دائمًا منذ أن كانت طفلة، لا تعلم علام بكت تحديدًا، على (تامر) أم على (أحمد)، أم على نفسها؟ تريد الشعور بالأمان مرةً أخرى، أن تشعر بأنها ما تزال الطفلة المدللة الهشَّة، أنه لا يزال مسموحًا لها بالانهيار باكية في حضن شخصٍ آخر أقوى منها لتلقي عليه همومها، بكت في حضن أمها وبكت على وسادتها وحدها، حتى غلبها التعب والنعاس، ثم استيقظت بعد نومٍ عميق مليء بالكوابيس على ألم رأسها من الخلف، دائمًا ما يعذبها هذا الألم بعد بكائها، تذكرت عراكها مع والديها كي يدعاها تزور (أحمد)، أرادت أمها أن تصطحبها على أقل تقدير، ولكنها علمت أن (أحمد) لن يحب وجود أحدٍ جواره سواها، فتعاركت والتفت وبكت وترجَّت، وافقوا في النهاية بعدما كذبت عليهم وأخبرتهم بأنَّ خالته في بيته، فلن يكونا وحدهما.

لم تحب الكذب ولكنها لم تكن ستتركه وحده في يوم كهذا، عائلته لايعرفون عنه سوى اسمه ومظهره وبعض قشريات هنا وهناك، لا أحد سيهتم به غيرها، وهو لن يسمح لأحدٍ بالاقتراب سواها، فهو يعلم أنها

وحدها التي ستريحه بكلامها إن تكلَّم، وبصمتها إن صمت، مثلما فعل وهو يقرأ مذكرات أخيه عله يفهم سببًا لما حدث، وهي تراقب دون ملل ودون أن تقطع عليه أفكاره بكلماتٍ تقليدية يكره سماعها، أو محاولات بائسةٍ لإخراجه من حالته التي لن يخرج منها إلا إذا رأى أخاه أمامه حيًّا.

خرج صوته مكتومًا، أخلى حلقه, ثم بدأ يقرأ المذكرات بصوتٍ مسموع:

«أخي العزيز, آسف على اللي حصل لك بسببي، أنا عارف إنك هتقرا المذكرات دي، فمغيرتش فيها حاجة، لا الحلو ولا الوِحش، آسف على تعبك وعلى قلقك عليا الفترة اللي فاتت، والفترة الجاية، تقريبًا كده أنا ماعملتش حاجة طول حياتي غير إني تعبتك وقلقتك عليا حتى في موتي، مش عايزك تفتكر من اللي قريته ورا إني كرهتك أو إنك السبب، ممكن نكون اختلفنا في الآخر بس أنا عمري ما بطلت أحبك»..

تغلب نحيبه على كلماته، انتفضت (نيرمين) مسرعة من مقعدها لتجلس بجواره على الأريكة، تربت على كتفه، هدأت نوبته فأكمل:

«انت يا (أحمد) ماكنتش فاهمني آخر فترة بس الحق مش عليك، أنا ماكنتش فاهمني برضه، كارهني ومش عارف أوقف اللي بعمله، زي ما أكون بتفرَّج على نفسي من بره وبشوف طريقتي معاك، فبكره نفسي أكتر، أنا عارف إنك كنت بتحاول وكنت خايف عليا، وعلشان كده أنا آسف.. أنا مابقتش

قادر أعيش خلاص، مابقتش شايف أي أمل ليا إني أكون سعيد، حاسس إني بقيت عبء عليك وعلى كل اللي حواليا، وعلى نفسي حتى، انا حاولت، والله حاولت، بس الدكتورة أكدت لي إن مافيش أمل، هي معاها حق، أنا بقيت مشوه ومريض وكئيب، مش هاقدر أحاول تاني خلاص، وعلشان كده هاخد الطريق الأسهل، عارف إنكم شايفينه مش الأسهل، وشايفين إني زماني بتشوي في النار»....

أغلق المذكرات بعنف وشرع يبكي بحرارة، صوته يعذب قلب (نيرمين)، احتضنته، ربتت على ظهره، شعرت بكتفها يبتل بدموعه، وشعرها يبتل بعرق رأسه، ويدها وملابسها بعرق جسده، أنفاسه متهدجة، بذلت هي جهدها كي لا تبكي معه لعلها تطمئنه بثباتها، تريد أن تكون قويةً من أجله، أن تريه أنها بجواره يعتمد عليها.

أخذت من يده المذكرات، تشبث بها للحظاتٍ كالطفل، قبل أن يتركها لها، ويغمض عينيها مستندًا برأسه على الوسادة بجواره مستسلمًا، قلبت (نيرمين) حتى وجدت آخر ورقة، تفحصتها حتى وجدت آخر ما قرأه (أحمد) وتابعت القراءة:

«بس أنا واثق في ربنا إنه هيشوف قد إيه أنا كنت تعبان وهيرحمني، أكيد هيرحمني بعدله, أكيد مش هيعذبني للأبد وهو الغفور الرحيم, أنا عمري

ماكنت سعيد، وعمري ماحسيت بطعم الدنيا اللي بيقولوا عليه، الدنيا مالهاش طعم، أكلة شكلها حلو من بعيد، بس دلعة، أو يمكن أنا اللي ماعرفتش أظبط بهاراتها.. مابقتش قادر أعيش.. تايه، حزين، زهقان، متغير، مش عارف أنا كدة ليه، والناس المبسوطة دي أحسن مني في إيه، أكيد ربنا هيرحمني، عايزك بس تدعي لي، وعايزك تعيش حياتك وتنساني، أنا كنت تاعبك وقارفك كده كده، يارب ترتاح كده...

والله بحبك أوي، وأتمنى إنك تقدر تعدي باللي حصل ده وتبقى بخير، انت الوحيد اللي قلقت عليا في اللي هعمله ده، أنا ماقلقتش حتى على نفسي، بس أنا عارف إنك جامد وهاتعديها، بحبك تاني.. تامر»..

أغلقت (نيرمين) المذكرات، أغمضت جفنيها، تبتلع ما قرأت، تبحث عن مكان هادئ ساكن بداخلها تجد فيه ثباتها، لم تفهم بعض ما قرأت، من هي (الدكتورة)؟ متى وصل تامر لتلك المرحلة من اليأس وكيف؟ّ

قام (أحمد) يتأوه، سار إلى غرفته في الداخل، أخذ هاتفه وعاد إلى (نيرمين) يأخذ منها المذكرات، نظر إلى آخر ورقة، نسخ رقمًا إلى هاتفه، لا تفهم (نيرمين) ما يحدث، حتى تحدث (أحمد) إلى مَن يتصل به:

- آلو (ميار)، أنا (أحمد).. أرجوكي ماتقفليش... أنا تمام الحمد لله، كنت عايز بس أقول لك إني آسف على اللي حصل وعلى كل حاجة، (تامر) كان

كاتب مذكراته وعرفت قد إيه انتي كنتي كويسة معاه وإن مالكيش أي ذنب، بجد أنا آسف وعلى فكرة (تامر) لآخر وقت كان بيحبك....

راقبته (نيرمين) يلتف حول نفسه، يسير ذهابًا وإيابًا، يخبر (ميار) كم هي شخص جيد لا تستحق ما فعله معها، يعتذر منها مرةً والأخرى، يطلب منها ألا تبكي فهي ليست المخطئة، يقسم أنها ليست السبب، ويعتذر مرة أخرى.. «من أين لك بهذا الثبات؟».. ترددت الفكرة داخل رأس (نيرمين) الجالسة تراقب بدهشة ما يحدث أمامها، طالت المحادثة الهاتفية وزادت خطوات (أحمد) ولفَّاته حماسةً وقوة حتى رأت شبح الابتسامة على وجهه وهو يقول أخيرًا:

- أكيد لازم أشوفِك قريب... تنوريني في أي وقت، هستناكي أنا و(نيرمين)..

نظر إلى (نيرمين) يبتسم لها, لقد كانت ابتسامةً بحق!.. ابتسامة لم تستطع ردَّها بمثلها؛ فاندهاشها كان أقوى، أكمل (أحمد):

- أكيد سامحتيني على إمبارح؟.. شكرًا أوي ليكي، مع السلامة .

أغلق (أحمد) الهاتف، عاد وجلس بجوار (نيرمين)، عوده مشتدٌ، وجهه أكثر إشراقًا رغم التعب الطاغي عليه، على الأقل هو الآن يبتسم، التفت إلى (نيرمين) وشعرت بأن حبيبها موجود في مكانٍ ما داخل ذلك الجثمان

الميت، يكاد يخرج ببريقه ومرحه فيستعيد السيطرة، ربما يحتاج بعض الوقت، هي صبورة خاصة معه، شعرت بطمأنينة داخلية بسيطة عندما رأت للحظة أنه سيعود لطبيعته مرةً أخرى، قال لها في ثباتٍ لم تره منه منذ الحادث:

- ميار سامحتني على اللي عملته، أنا مش عارف أنا إزاي عملت كده؟!.. لولاكي كان زماني...

قاطعته (نيرمين) وهي تلتقط يده تدلِّكها وقالت:

-حبيبي ما تقولش كده، المهم إنها سامحتك.

أرادت أن تسأله عما غيَّر رأيه، فلم تجد الكلمات المناسبة، كاد أن يقتل (ميار) ليلة البارحة، و الآن تنتشله من عمق همه بكلماتها!.. رأى (أحمد) التشويش في وجه (نيرمين) ففهم، وراح يقص عليها ما قرأه في مذكرات (تامر)، (ميار) وهي تبكي لتركها له، وطريقتها الطيبة في التعامل معه، محاولات (تامر) ليجد ما يعيبه محاولًا تغيير نفسه لشخص آخر، ثم جلساته مع الدكتورة والتي حطمته تمامًا، تتحول ملامح (أحمد) للغضب مع كل كلمة يقصها، يسب (الدكتورة) ويتعجب مما فعلته وقالته..

-إزاي تعمل فيه كده؟!.. دي إنسانة مريضة ووسخة!..

تومئ (نيرمين) برأسها موافقةً من كل قلبها، متأثرة بما يقصه عليها (أحمد)، مشفقة على (تامر) مما عاناه بسبب تلك (الدكتورة) السطحية الشريرة شرًّاخالصًا!.. بالطبع فهم يقرأون الرواية من وجهة نظر (تامر)، يصدقون كل كلمةٍ فهي حقيقتهم المطلقة، يشاركونه كرهه لـ (الدكتورة) التي حطمته، يتساءلان كيف يمكن لشخصٍ أن يفعل ذلك؟ كيف يمكن أن يكون شخصًا بتلك القسوة؟! صمتا لوهلة، يحدق (أحمد) في الأرض، يتنفس بقوة، عضلاته الآن مشدودة منتفخة, وقال:

- ياترى خلِّت كام شخص ينتحر بسببها؟! .. أنا مش هاسيبها، ورحمة (تامر) ما هسيبها.. لازم أذلها زي ما ذلته وبهدلته!!.

*****

جلست (نيرمين) على سريرها تترك غضب عراكها اليومي – منذ حادث تامر– مع والديها ينسل من داخلها، منهكةً لا تطيق نور مصباح غرفتها النيون الساطع، ولا تجرؤ على إغلاقه فيتسلل لها شبح (تامر) مستترًا بظلام غرفتها، ثارت لسذاجتها وطفولتها، حاولت مقاومة خوفها ككل ليلة منذ ثلاثة أسابيع، ففشلت مرةً أخرى، سيظل المصباح كالشمس ينير غرفتها الصغيرة، أخرجت مذكرات (تامر) من أسفل وسادتها -ذات الغطاء

زهري اللون مطابق للون ملاءة السرير والغطاء وخزانة الملابس ومكتبها البسيط في الزاوية البعيدة- وعادت تقرأ الجزء الخاص بـ (الدكتورة) مرة أخرى، تبحث عن سبب كي لا تنساق وراء كلام (أحمد) فلا تجد، فهي حقًا سيئة، آذت (تامر) وبالتأكيد المئات غيره، أخرجت (نيرمين) هاتفها وبحثت عن صفحة (الدكتورة) الإلكترونية للمرة المائة، تتفقد صورها وتعليقات أصدقائها، جميعها إما صورٌ مهنية بحلات رسمية ونظرات ثاقبة؛ أوصورٌ بفساتين تكشف أكثر مما تستر في ملاهٍ ليلية، ترقص أو تجلس وأمامها زجاجات الجعة، وكأنها تتحدى كل من يجرؤ على الاعتراض على أفعالها، كل التعليقات باهتة وسطحية تظهر انبهار المعلق أكثر من قربه لها.

بعد ثلاثة أسابيع من إقناع (أحمد) لها بأنَّ (الدكتورة) تستحق العقاب -كل يوم تشعر (نيرمين) أن (أحمد) ربما كان على حق بشكل من الأشكال- كوَّنت (نيرمين) من مذكرات (تامر) وما رأته منها على مواقع التواصل الاجتماعي عنها فكرة الشخصية السطحية المتنمرَّة، التي تظن نفسها أفضل من الجميع فتنتقد الجميع، بل وتأخذ المال والشهرة والشكر على انتقادها للآخرين وتحطيمها لهم!.. تذكَّرت (نيرمين) كلمات (أحمد):

«دي آفة بتأذي كل اللي حواليها، ومن ساعة ماجبت الأكاونت بتاعها من موبايل (تامر) وأنا بدأت أراقبها وشايفها عمالة تتشهر أكتر وأكتر... عايشة حياتها عادي بعد ماقتلت أخويا!!»..

كانت الكلمات الأخيرة تتردد كثيرًا على لسان (أحمد) في كل مواجهة له مع (نيرمين)، بعدما قرر بأن (الدكتورة) هي من قتلت أخاه بكلماتها التي دفعته إلى اليأس، وربما (أحمد) كان محقًا فها هي مذكرات (تامر) تثبت أنها السبب دون شك مهما دققت (نيرمين), ولكنها لا تستطيع مساعدته على أذى شخصٍ آخر، كما أنها لا تثق بما قد يفعله (أحمد)، هل هو حقًا سيؤذيها فقط؟ أم أنه سيقتلها؟! وإن كان سيؤذيها ، فكيف تكون أذيته تلك؟!

أغلقت (نيرمين) الهاتف، سحبت الغطاء الخفيف ليعتلي جسدها الهزيل، وضعت رأسها على الوسادة محاولة الاستسلام للنوم، فتمنعها أفكارها..

أحمد لا يتسطيع أن ينام، ولا العودة إلى العمل أو العودة إلى حياته الطبيعية، يحلم كل ليلة بـ (تامر) يبكي في أحضانه، يطلب منه الأخذ بثأره, هوعقله الباطن ليس أكثر، ولكن (أحمد) أصبح يصدق أن أخاه يزوره حقًا كل ليلةٍ في أحلامه، يطلب منه الانتقام له من الدكتورة.. لاتعلم ما عليها أن تفعله، هل يجب عليها أن تُرجعه عما يريد أن يفعله؟ لن يتوقف (أحمد) ولن يعود إلى سابق عهده إلا بعد أن يأخذ بثأره، هي تعرف ذلك كما تعرف حروف اسمها، ربما (الدكتورة) تستحق حقًا ما يريد أن يفعله (أحمد) بها، والذي لا تستطيع (نيرمين) تصوره بعد، تعلم أنها ليست بالشخص المؤذي ولكنها بارعة في التخطيط، أما (أحمد) فهو متهور،

ولو تركته فسينتهي به الحال مسجونًا وربما معدومًا لقتل (الدكتورة)، لا تستطيع (نيرمين) أن تتركه ليلقي بنفسه إلى التهلكة، وهو قد قالها لها صريحةً مرارًا وتكرارًا، ينهي به حديثهما كل يومٍ على مدار ثلاثة أسابيع:

«أنا كده كده هاخد حقي.. سواء انتي معايا أو لوحدي»..

****

١٣

أغلق (أحمد) الهاتف، أبعد السكين عن رقبة الدكتورة بعدما تأكد أنَّ الخطر انتهى، وخطته الأساسية هو و(نيرمين) مازالت قائمة، لديه كل الوقت الذي أراده ليلعب لعبته مع الدكتورة، كان يمكنه أن ياخذ بثأره منها في أي مكان، يوقفها في الشارع و يضربها، يدفع لمن يريده ليقتحم بيتها، لكنه أراد أن يواجهها, يلعب بمشاعرها و يروِّعها، أن يُعلمها لماذا يفعل بها ذلك، أنها شخص سيئ مسؤول عن فساد حياة الكثير، وعن انتحار أخيه، ولولا (نيرمين) ما استطاع أن يخطط لكل ذلك، لم يخبرها ما نوى فعله، ولكنها تعلم فهي تعرفه كما تعرف كف يدها، هي ذكية كفايةً، لولا أنه وضعها في اختيار بين مساعدتها له أو تخطيطه وحده لما ساعدته - فهي تعلم وهو يعلم بأن خطته ستؤول بالفشل وستنتهي بكارثة- فهي (نيرمين) الهشة، ورغم ذكائها الذي افترض به منعها هي حبيبته.

تنفست (الدكتورة) الصعداء، اعتدلت في مقعدها تريح عضلاتها المنكمشة الملتوية بعضها على بعض، راقبت (أحمد) عائدًا بسكينه إلى مقعده، تتساءل عما قد يفعله بها؟ عما يريده منها؟ تبحث بنظرها حولها عن شيء يساعدها على الخروج من قيودها، فكرت في الصراخ الآن وفمها حرٌّ طوع

إرادتها، ولكن شجاعتها لم تكن كافية، ماذا لو فزع (أحمد) عندما تصرخ فطعنها وهرب؟ وماذا سيحدث حتى وإن تحررت من قيودها؟ لن تتمكن أبدًا من مقاومته هي الهزيلة الضعيفة وهو الضخم مخيف المظهر، وسكينه اللامع يزيده خطرًا، وكأنه يحتاجه من الأساس ليبث في أعماقها الرعب!..

جلس (أحمد) على مقعده مستريحًا مستكينًا في غطرسةٍ واضحة في لغة جسده ونظراته المتعالية التي يقول من خلالها: «أنا ربحت».. «أنتِ ملكي الآن»..

سألت (الدكتورة):

- انت عايز مني إيه؟

- هاقول لك، لما كنت هناك وفتحت الموبايل علشان اتصور وشُفت صورة أخويا الله يرحمه، واللي قتلته قاعدة قدامي، كان فاضل لي ثانية وأبوَّظ كل حاجة....

- أخوك اللي قتلته؟!

قاطعته الدكتورة بعدما ركَّب عقلها الجملة ففهمت ما يقصده (أحمد), فقالت:

- أنا ماقتلتش حد!!

- زي ما كنت بقول، أخويا اللي انتي لسه شايفه صورته ده، افتكرتيه؟!

كادت (الدكتورة) أن تفصح عن تذكرها له بالطبع، وإذ بصوتٍ داخلي يصرخ فيها أن تنتظر وتفكر، هل يجب أن تخبر (أحمد) بأنها تتذكره؟ سيسألها عما فعلته به، وهي تعلم قسوتها معه، ربما يجب عليها النفي، ولكن ماذا لو اعتبر أنها لم تعطِ أخاه أية أهميةٍ بنسيانها له؟ سكتت وهامت تفكر في رد ينجيها، فطال صمتها مع صعوبة اختيارها، فقاطع صمتها (أحمد) وقال:

- ماتخلصي فاكراه ولا لأ؟!!

انتفضت وتوتَّرت، خفق قلبها، أومأت أن نعم، مستسلمة لغضبه، عاد (أحمد) لابتسامته المخيفة الباردة وأكمل:

- كويس, هل عرفتي حصل فيه إيه بعد ما مشي من عندك؟

مرة أخرى ألقى (أحمد) بالدكتورة في طريقين لا تعرف أيهما قد يقودها إلى موتها، ولكن الاختيار هذه المرة أسهل، هي إيماءة نفيٍ تبرئها من أية صلةٍ لها بانتحاره الذي قرأت عنه في كل مواقع التواصل الاجتماعي، فقال (أحمد) في هدوء:

- تمام، بعد ما حضرتك كسرتيه لحتت صغيرة مرة ورا التانية ورا التالتة؛ ماقدرش يستحمل يعيش، فانتحر من الزعل والقهرة والتشاؤم.. بسببك...

- أنا ما عملتش حاجة غير شغلي اللي هو كان جاي علشانه، أنا مش هاينفع أكدب أو أجامل، هبقى فرقت إيه عن بقية الناس؟!

قاطعته الدكتورة مدافعة عن نفسها، تحولت ملامحه إلى الجدية أكثر وأكثر وهو يجيبها:

- وهو انتي علشان تفرقي عن الناس تدوسي على خلق الله؟! عيادة زي دي مش هييجي فيها غير ناس عندها مرض نفسي حقيقي، وانتي ماشاء الله تستغلي قلة ثقتهم في نفسهم، وتدوسي عليهم علشان تحسي إنك مهمة، وإنك عبقرية، وأحسن واحدة في الدنيا!!.. بس أنا هنا وعملت كل الخطط دي، و قاعد معاكي القعدة دي، علشان أقول لك إنك أوسخ واحدة في الدنيا!!.

- ممكن ده يبقى من وجهة نظرك، بس شوف فيه عندي عملاء قد إيه، ده يقول لك إني ناجحة وإن بجد فكرتي كانت عبقرية والناس كانت محتاجاها.

- لا لا، الناس اللي بيجولك دول، بييجوا علشان إحنا كبشر محتاجين نسمع إننا حلوين، فلما هيلاقوا واحدة بتقولهم رأيها بصراحة أكيد هيبقوا عايزين شهادة منها بأنهم كويسين، إنهم يستاهلوا كل حاجة حلوة، وياعيني ييجوا هنا يتقالهم إن مفيش أي أمل إنهم يحبوا أو يتحبوا، وإن مفيش فيهم أي حاجة صح!!...

- أنا ما بعملش كده!

قاطعته الدكتورة صارخةً، فعلا صوت (أحمد) القوي فوق صوتها:

- لاعملتي.. أنا قريت جلساتك مع أخويا، وعرفت كل حاجة، كان بيسجِّلهم بالتفصيل في مذكراته.

- أخوك كان مريض نفسي وكان غريب، شكله ولبسه وتصرفاته، أنا لما بقول رأيي ممكن الناس تاخده كحافز وتتحسن، وناس بتقع، لكن ده شغلي اللي هما جايين علشانه.

- شغل إيه؟ أخويا كان مريض فعلًا، بس تعرفي إيه انتي عن حياته علشان تقرري تعملي فيه كده؟ كان ممكن يبقي بينا دلوقتي، بس باللي انتي عملتيه ده خلتيني أتحرم منه للأبد، وأنا مش هسيب حقه ولا حقي!.

شعرت الدكتورة بالخطر يزداد, تكاد تتيقن من نية (أحمد) بما سيفعله لها من نظراته الغاضبة، ويده المغلقة بإحكام على مقبض السكين البني، تشعر بألم رأسها يتضاعف، وألم في قلبها لنبضه بقوة تفوق قوته، شعرت بأن النهاية تقترب، فعادت دمعاتها ساخنة تتسابق على خديها، تشعر بملوحة طعمها على شفتيها، كل حواسها متضاعفة، تشم رائحة عطره القوية، تسمع قدمه المرتعشة تضرب الأرض الخشبية في وقع متتالٍ

سريع، تتساءل إن كان يسمع صوت نبضات قلبها بوضوح كما تسمعها هي؟ مازالت لا تري مخرجًا لها سوى عفوه عنها، قالت مترجيةً:

- أنا ما كنتش أعرف إني هأذيه أوي كده، وأنا بجد آسفة..

ابتلعت ريقها بعد تلك الجملة، ها هي معتقدات عمرها الذي أفنته في تلك العيادة يتحطم أمام عينيها، فهي لم تعتذر عن عملها قط، ثم أكملت بصعوبة:

- سيبني أمشي، ووعد مني إن اللي حصل النهارده مش هاجيب سيرة بيه لأي حد.

صمت (أحمد) وجلس يتأملها لدقائق، يفكر في كلامها بتمعُّن، هل تستحق حقًا ما حلم بفعله لشهور منذ موت أخيه؟ هل يحتاج أن يفعل بها ما رآه في منامه ويقظته؟ هي إنسانة سيئة، لكنها ضعيفة تترجاه، شيء بداخله يسحبه للوراء، يقنعه بأن ما فعله يكفي بل ويزيد، وشيءٌ آخر يجبره بأن يمضي قدمًا فيما عزم عليه للنهاية، فهي قتلت أخاه, من يعلم كم من الناس قتلت وكم ستقتل؟ بالإضافة لأنها رأت وجهه وتعلم بأنه شقيق (تامر)، لن تتركه إن ظلت حية بعد ما فعله بها، بل لعلها تنتقم من (نيرمين) أيضًا، ربما لن تستطيع الشرطة مساعدتها فكلمتها ضد كلمته، ولكن هناك طرقًا عدة للأذى، فما فعله بها ليس بالهين، ماذا لو عادت لتنتقم منه، أو تفعل

الأسوأ فتستهدف (نيرمين)؟ قرَّر (أحمد) بعد برهة من التفكير العميق أنه لا يوجد مجال للتراجع الآن.. هذه المرة لم يسيطر عليه الغضب عنوةً، بل كان يستحضره ليتولى زمام الأمور عنه، تذكر كل لحظة له مع أخيه، ثم تذكر جثته، وتذكر ما قرأه عن عذابها لشقيقه، وأنها السبب في موته، انطلق كالعاصفة حتى وقف أمامها.. صرخت لرؤيته يقترب في محاولةٍ أخيرة بائسة، كمَّم فمها بيده يضغط لحم شفتيها على أسنانها، ثم أعاد اللاصقة مرةً أخرى لينغلق فمها مرة أخرى، ارتجت في مقعدها بقوة تقاوم بكل ما لديها، تضرب المقعد وتشد وتتلوى وتصرخ بلا توقف، علمت لمَ كان يقترب منها تلك المرة، لم تحتج الانتظار لكي تكتشف، دموعها لا تتوقف، عرق غزير يكسو وجهها رغم شحوبه، فقدت الأمل فهدأت حركاتها، ولكن نحيبها لم يتوقف، عيناها متعلقتان بعينيه، مستعطفتين وضعيفتين، باكيتين بكل الأسى والندم، مرة أخرى يكاد يتراجع، يشعر بصعوبة مهمته الآن، قتلها كل يوم مائة مرةٍ في رأسه منذ انتحار شقيقه، والآن وهو واقف أمامها والسكين في يده، خطة (نيرمين) المحكمة ناجحة فلا يقاطعه أحد، يشعر بثقل دوره يتزايد فوق ظهره.. أغلق عينيه كي لا ينظر إليها أكثر، ترك الغضب يتسلل إلى أعماق قلبه وعقله، فيتحكم في كل أفكاره ومشاعره وأطرافه، فتح عينيه وهو يتحاشى النظر في عينيها، وضع يده اليسري على كتفها الأيسر يقبض عليه بقوة يثبتها، فعادت إلى صراخها المتواصل

المكتوم، وتخبطها في المقعد كالممسوس، تتلفت حولها باحثة في يأسٍ عما ينقذها، تعلقت عيناها بالباب المزخرف، هل يمكن أن يدخل عليها (محمود) الآن فينقذها؟ تنهد (أحمد) بقوة، أغلق عينيه بإحكام، وطعنها بكل ما فيه من عزم، لتخترق السكين صدرها وتصيب قلبها تمامًا، تشنجت عضلاتها، توقفت عن قفزها وصراخها، انقلبت عيناها للوراء، توقَّف نحيبها، وأطلقت عدة شهقات قبل أن تسكن تمامًا.. وللأبد..

ظل (أحمد) واقفًا مستندًا على كتفها، سكينه مغروسة في قلبها، عيناه مغمضتان، نَفَسه مكتوم، عقله لا يستطيع التمييز بين الحقيقة والخيال، هل حقًا طعنها؟ هل حقًا قتلها؟ يكاد يتوقف قلبه هو الآخر ليسقط فوقها، يشعر برأسه تدور به وقيئه على وشك الانفجار من فمه، استند على المكتب ونظر أسفله فوجد سلة المهملات، أخرجها ووضع رأسه بها، وأطلق العنان لقيئه يخرج كبركانٍ ثائر لا يتوقف، لا يتحمل طعمه المر في فمه أو رائحته النتنة التي تملأ أنفه، جلس على طرف المكتب يلتقط أنفاسه بعدما انتهى، لا ينظر لها، دهشته تشل تفكيره كليًا، ترتعش يداه، تكاد ركبتاه أن تخوناه فلا تحملانه، تنفس في عمقٍ يستعيد رشده شيئا فشيئًا، لم يعلم كم من الوقت مرَّ، ولكنه لن يتحمل الجلوس بجوارها أكثر من ذلك..

التف (أحمد) حول المكتب يكاد يتعثر في كل خطوة، ارتدى غطاء رأسه

وأحكم لف كوفيته لتخفي نصف وجهه السفلي فلا تظهر إلا عيناه وجزء صغير من أنفه، خرج من الغرفة يجر قدميه، ثم خرج من العيادة وانعطف بحدةٍ لحظة خروجه، يسير في اتجاهٍ معاكس لاتجاه قدومه، تاركًا وراءه (الدكتورة) مقيدةً ومكممة بالشريط اللاصق، سكينه مغروس في قلبها، دماؤها تسيل على ملابسها الباهظة الممزقة، عيناها مفتوحتان لا ترى سوي الجزء الأبيض فيهما، رأسها ملقاة إلى الوراء، رقبتها مشدودة ككل عضلات جسدها المتخشب .

فاصل..

عزيزي القارئ, دعنا نأخذ فاصلًا بين بابَي الرواية, أقصُّ عليك فيه عن شخصٍ مهم كل الأهمية في قصتنا ولا تعلم عنه إلا القليل: (الدكتورة)...

كثيرٌ من الأفلام والروايات على مرِّ الزمان تستخدم تقنية عرض شريط حياة الضحية أمام عينيها قبل الموت, ولأصدقك القول الأمر ليس بتلك البساطة, بعض الناس يصدقون في هذه الظاهرة وبعضهم كذبها بل حاربها بقوةٍ, معركةٌ طويلة بين فلاسفةٍ وعلماء ورجال دين, ربما لم تحدث لك من قبل عزيزي القارئ, ربما لم تقترب من الموت, ربما اقتربت ولم تحدث لك, ولكنها حدثت لكثير آخرين عادوا من -رحلات اقتربوا فيها للموت بشدة- ليخبرونا بأنها حقيقة, يرى البعض أن مَن واجه تلك الظاهرة وعاد من الموت ليقصها علينا لم يقترب من الموت من الأساس, بل نحن من وضعناهم في ذاك التصنيف لقلة علمنا, ربما تظن بأنَّ كل هذا هذيان, وأنَّ مَن يواجه الموت بحقٍ لن يرى حياته أمام عينيه, وربما تصدقهم, وفي تلك الحالة يجب أن تقلق, فكل من عاد يقص أنَّ ما شعر به هو الحزن والندم؛ هذا حديثٌ ليومٍ آخر, وربما رواية أخرى؛ أما اليوم فلنتفق على أنَّ الظاهرة حقيقية, ولنتخيل ما قد رأته (الدكتورة) عندما واجهت الموت.

كل منا لديه تلك الذكريات من أيام طفولته, لا يعلم كيف يتذكرها, ولا يتذكر ما يسبقها أو ما يليها, يتذكر يومًا أو حادثًا, أو كلمةً, أو نظرةً, أو لحظةً, بوضوحٍ, وكأنها حدثت البارحة, وفي حالتنا تلك, كانت إحدى هذه الذكريات

هي أول ما رأته (الدكتورة) عندما انطفأت أنوار عالمنا المادي في عينيها, كانت من سكان الإسكندرية, في مناطق ما وراء قضيب القطار الداخلي, وكان أول يومٍ تسمح لها أمها أن تذهب للمدرسة وتعود وحدها, فهربت من المدرسة, لم تتذكر لمَ فعلت ذلك تحديدًا, ولكنها كانت متأكدة أنه بسبب كرهها الشديد الأبدي لمنطقة سكنها, تكره عشوائيتها, تكره ضوضاءها, تكره الأسواق والبائعين والزحام, تكره الشوارع المكسرة ومواقف المواصلات والسائقين, وتكره الصورة التي يرسمها عنها كل مَن تخبره أين تعيش؛ فقضت فترة دراسة الثانوية والجامعة تكذب كلما سألها أحدٌ عن مكان بيتها, تسرق أموال دروسها وتبكي لأمها وتغضب وتتحايل وتستعطف كي تشتري الملابس الباهظة فلا تبدو كجيرانها وأمها وأبيها, تهرب في كل فرصةٍ من شارعها بل من (حي قبلي) بأكمله إلى بحر الإسكندرية, فتعود مجبرةً كل ليلة, لا تعتاد الوضع أبدًا ولا تقبله.

وهكذا كانت أول ذاكرة لها وهي طفلة, ترى نفسها واقفةً على الرصيف المقابل لبحر الإسكندرية, نحيلة ضعيفة, بريئة, شعرها الأشعث مربوط إلى الوراء, تحمل على ظهرها حقيبةً بالية ثقيلة تحني ظهرها, تستمتع بهواء البحر العليل ورائحته المالحة, وبأول شعور لها بالتحرُّر المطلق من قيود أسرتها, متعلقة عيناها بامتداد البحر حتى يلتحم مع السماء الصافية, تتمنى لو تعبر طريق (الكورنيش) فتصلها قطرات الماء المتناثرة من اصطدام

الموج بالصخور, ولكن خوفها من السيارات المسرعة أبقاها على الضفة الأخرى, فشعرت بالندم الآن وحياتها تنتهي لأنها خافت.. تذكَّرت يوم حملت حقيبتها لتغادر البيت الذي كرهته طيلة حياتها, يوم نظرت أمها للوراء تلقي نظرةً على البيت الذي تزوجت به وعاشت فيه لعقود, على زوجها الذي ستتركه بعد أن أقنعتها ابنتها

-(الدكتورة)- بأنه لا يستحقها, فلطالما كانت أمها تضع أموالًا أكثر منه في البيت, هو عالةٌ عليهم, إذن فلمَاذا يظلَّان معه وبخله وفشله؟ هي أنهت جامعتها ووجدت عملًا في أحد البنوك بالفعل, فلم لا تخرج هي وأمها من ذاك المستنقع الذي أبقاهما فيه ليذهبا إلى القاهرة فلا تضطر للكذب مرة أخرى؟!.. تذكرت نظرة أبيها الأخيرة قبل أن يخرجا, جلس صامتًا حزينًا مصدومًا منكسرًا يشاهد أسرته تتركه وحيدًا بكل قسوة, لم ترتح أمها بعد مهما حاولت أن تجعلها تعتاد القاهرة, مهما حاولت أن تنسيها, حتى ماتت أمها حزينةً نادمة على انصياعها لها.

تذكرت قسوتها وهي لا تردُّ على صديقاتها من الإسكندرية, لا على رسائلهم ولا مكالماتهم, تذكرت نشوتها عندما رفضتهم, بينما هم يحاولون مرةً فالثانية فلا تشعر بندمٍ, أحبت الشعور بأنها مرغوبة, أنها مهمة, ومن هنا بدأت تتعامل ببرودٍ وقسوة مع الجميع, ترتدي أجمل وأجرأ الملابس والحلي, وتضع أغلى مساحيق التجميل, وتخرج في أشهر الأماكن وأفخمها,

يراها الجميع من بعيد فينجذبون لتألقها وانطلاقها, يقتربون منها معجبين بها.. خاصةً الرجال, فتحطمهم وكبرياءهم وتكبرهم كي تظل هي الأفضل دائمًا, فهي من لا يعجبها أحد, تتغيب من كل مناسبةٍ وتعتذر عن أكثر التجمعات كي تحافظ على مظهر المهمة, والآن تتندم على حياةٍ عاشتها حاضرةً غائبة ناقمة.

تذكرت كل وجه بهتت الابتسامة عليه حتى اختفت بسبب رأيها في العيادة, كل شخصٍ أتى بحثًا عن رأيها علها تعطيه بعض الثقة, فحطمتهم جميعًا, حتى أتى وجه (تامر) وتوقف عنده شريط الذكريات, هل هي حقًا من قتله بكلامها؟ هل يعد هذا قتلًا من الأساس؟ أمام القانون.. لا.. فالكلمات لا يراها القضاة أداة جريمة, ودفع شخصٍ لقتل نفسه بالكلمات ليس قتلًا, ولكن ماذا عن أمام نفسها وأمام ربها؟ هل هي ضحية أم هي قاتلة تستحق أن تُقتل؟

لم تكن تشعر بالعظمة في تلك اللحظة وهي تواجه الموت, لم تكن تشعر بالنشوة, لم ينفعها معجبون ولا مظاهر, لا بيت القاهرة, ولا السهرات ولا الملابس ولا الحلي, لم تجد لحظةً تتعلق بها لتشعر بالسعادة في آخر لحظاتها في الحياة, لم تشعر بشيءٍ سوي الحزن الدفين.. والندم...

الباب الثانى...

١٣

أوقف سيارته الفارهة السوداء في منتصف الطريق, ترجَّل منها في مشهدٍ يخطف الأنظار, يبدو كممثلٍ وسيم في فيلم, وجهه جادٌّ حاد الملامح, رأسه صلعاء, لحيته وشاربه أملسان تمامًا, بشرته قمحية داكنة, جسده قوي مفتول العضلات, تكاد تمزق قميصه الأبيض مفتوح الصدر رغم شدة البرودة- يجعل من حوله يبدون أقل رجولةً منه بتحديه للطقس دون أن يبدو عليه معاناة- يرتدي فوقه سترةً بنية كلاسيكية تضفي عليه هالةً جديَّة, ومن الأسفل بنطال جينز, وحذاءً جلديًا أسود مطابقٌ لونه للون حزامه المُحكم حول خصره ومسدسه.

استقبله العساكر والمخبرون يحيونه في احترامٍ ورهبة واضحة فيتجاهلهم, أمسك بذراع أحد العساكر يعتصره وأمره بحزم:

- اركن العربية قريب.. ملاقيش عليها خربوش.

- تمام يافندم.

تركه وأكمل طريقه للعيادة, ينظر حوله على الشارع, هادئ لا يوجد فيه سوي مداخل المباني, ترصد عيناه كل التفاصيل حوله, تفحَّص واجهة

العيادة فرأى كاميرا المراقبة موجهة إلى المدخل من الزاوية العليا اليمنى، دخل يتفحص المكان من الداخل, على يمينه رجال المعمل الجنائي يرفعون البصمات عن الأثاث القليل, أمامه مباشرةً الباب المؤدي للغرفة الداخلية مفتوحٌ على مصراعيه, يرى منه جثة (الدكتورة) مقيدة بالمقعد, سكين مغروسة في قلبها, حولها بقعة كبيرة من الدماء, حاول رؤية تفاصيل أكثر, وقف بينه وبينها أحد الرجال يلتقط لها صورًا, فأكمل تفحصه لمحيطه دون أن يظهر على ملامحه الجادة أي تأثرٍ بالجثة التي رآها للتوِّ.

على يساره, جلس الضابط المساعد له -(إسلام)- ملابسه بسيطة ومظهره متواضع كعادته, هزيل يبدو عليه صغر سنِّه, يتحدث إلى وجهٍ جديد عليه, رجل وسيمٌ مهندم يرتدي حلةً رسمية سوداء, متوتر ترتعش يداه وهو يلوح بهما مشيرًا للغرفة الداخلية, يبدو عليه الحزن والهلع, يقصُّ على الضابط (إسلام) ما حدث, والضابط يدوِّن كل التفاصيل في مفكرةٍ صغيرة.

ما إن رآه الضابط (إسلام), أوقف (محمود) الهلع بحركةٍ من يده وكلمات بسيطة, وذهب إليه يستقبله رافعًا يده في تحيةٍ عسكرية متكلفة, وقال ما إن أصبح واقفًا أمامه:

- طه باشا!.

تجاهل (طه) تحيته, وسأل بحزم:

- إيه الموضوع؟

قلَّب (إسلام) في مفكرته, وشرع يقرأ منها كي لا ينسى أي تفاصيل:
-(محود) موظف الاستقبال...

أشار إلى (محمود) الجالس أمام مكتب الاستقبال وراءه:
-مشي امبارح بدري علشان فيه رقم اتصل بيه وقال له إن والدته اللي كانت في جلسة غسيل كلوي تعبانة, وساب القتيلة لوحدها مع حالة بيقول كان شكله مريب ومخيف وإداني أوصافه, لما رجع النهارده لقي العيادة مفتوحة, دخل لقي الجثة مربوطة بسوليتب في الكرسي ومتكممة و...

- تمام تمام!.

قاطعه (طه) بعد أن سمع ما يحتاج, وقال:
-
فيه كاميرا مراقبة برَّه, عايز الفيديو علشان نراجعه، أنا هشوفه بنفسي.
-تمام يافندم!.

تركه (طه) لينفذ أوامره, سار إلى (محمود) الجالس رأسه ملقاة بين يديه, تشد أصابعه على شعره, التف (طه) حول المكتب يتفحصه, جلس على مقعد المستقبل وراء المكتب, لم يلحظ (محمود) وجوده, ضرب على المكتب ثلاث مراتٍ بعنف, فوثب (محمود) في مقعده ينظر له, لم يمهله

(طه) فرصةً, سأله:

-انت مشيت بدري امبارح؟

- أيوه حضرتك.

- ليه؟!

- أصل أنا والدتي بتغسل كِلى وكان المفروض أجيبها...

- انت اللي بتاخدها كل مرة؟- أيوه حضرتك بقالي ست سنين...

- وليه مشيت قبل معادك إمبارح؟

- علشان فيه رقم اتصل بيا قال لي إن والدتي تعبانة ومحتجاني في المركز فاستأذنت الدكتورة...

- وكانت تعبانة فعلًا؟

لا ينتظر (طه) من (محمود) إنهاء جملة, يسمع ما يبحث عنه, ثم يبتر باقي كلامه بسؤالٍ يضعه في المسار الذي رسمه له, لا يمتلك (محمود) سوي الرضوخ والإجابة, فردَّ:

- لا يا بيه والمركز قالولي إن محدش اتصل من عندهم...

- طيب وده مخلاكش تشك إن فيه حاجة غلط؟

- لا والله يا بيه، وكنت راجع خصوصًا إني خفت على الدكتورة من الراجل اللي كان هنا إمبارح ده, بس لما كلمتها في التليفون قالت لي إنها خلصت الجلسة وهتقعد شوية ومروَّحة.

-بجد والله! هنشوف هنشوف... هات موبايلك وافتحه.

لم يخف على (محمود) الفارق بين قسوة (طه) ولين (إسلام), أخرج هاتفه وفتح القفل, مد يده به لـ (طه) الذي انتشله منه بعنف, يزأر له بنظره, وصاح بصوتٍ عالٍ لينتفض (محمود) مرةً أخرى:

- (إسلام) بيه... (إسلام) بيه...

ثم عاد لـ (محمود) يقول له باستهزاء:

مالك خفيف كده يالا ما تجمد!!. كمل بقى فكست وفضلت مع أمك, وبعدين؟!

- مفيش يا باشا روَّحتها وفضلت في البيت, وصحيت النهارده رحت الشغل.

- فين؟

- أنا شغال في جامعة عين شمس موظف في الشئون.

كمِّل.

- خلصت الشغل روَّحت أكلت وبعدين جيت في ميعادي علشان أجهِّز العيادة قبل الدكتورة ماتوصل...

هذه المرة لم يقاطعه (طه), اقشعرَّ بدنه عندما ذكر (الدكتورة) فانهمرت دموعه وسالت أنفه, مسح وجهه بكفيِّ يديه, تأفف (طه) وضرب على المكتب بقوة وصاح فيه:

- ما خلاص انت هتعمل لي فيلم؟! اخلص أنا مش فاضي لك!!.

صمت كل من في المكان خوفًا من (طه), جاهد (محمود) بكاءه حتى أوقفه, وأكمل:

- لقيت العيادة مفتوحة.. قلقت, دخلت لقيت (الدكتورة) مربوطة والسكينة في قلبها, فاتصلت بالبوليس على طول والله.

- صادق... فيه حاجة ليها قيمة ناقصة من العيادة؟

نظر (محمود) حوله متفقدًا المكان, لم يكن هنالك ما ينقص ولا يوجد ما يستحق السرقة من الأساس, ثم تذكَّر النقود التي جمعها اليوم السابق, فعاد بنظره لـ (طه) وقال:

- لا يا باشا بس كان فيه فلوس كشوفات امبارح في درج المكتب مسلمتهمش

للدكتورة.

- المكتب ده؟

- أيوه حضرتك.

- طب تعالى طلعهم لي وطلع لي السجل اللي بتسجل فيه الأسماء, ولا مفيش؟!

- لا حضرتك فيه.

- طب تعالى ياخويا يا حساس!!.

تجاهل (محمود) سخرية (طه) وغطرسته, فلم يمتلك سوى الانصياع لكلامه كي لا يجد نفسه متهمًا بجريمة قتل, التفَّ حول المكتب مسرعًا, قام (طه) ليفسح له المجال, ولكنه ظل قريبًا يراقبه, يشعر (محمود) بالتوتر لكونه قريبًا منه هكذا, فتح الدرج فوجد المال والسجل تمامًا كما تركهما, أخرجهما ووضعهما على المكتب متحاشيًا النظر لـ (طه), دفعه (طه) بأطراف أصابعه وهو يأمره:

- وسع لي كده شوية.

وعاد يجلس, يقلِّب المال في يده, كاد (محمود) ان يعود إلى مكانه فأوقفه

(طه) قائلًا:

- لا خليك واقف جنبي هنا شوية.

أخذ يقلِّب في أوراق السجل وأكمل: -

احكي لي بقى عن الراجل اللي جه امبارح ده بالتفصيل.

قص عليه (محمود) ما حدث منذ دخول (أحمد) عليه.. مظهره, تصرفاته, تأثر (الدكتورة) الواضح بوجوده, يقلب (طه) في الدفتر, لا يعلم (محمود) إن كان يسمعه من الأساس, لا يجرؤ على التوقف أو السؤال, حتي قاطعه (طه) أخيرًا:

- (علاء أنور)... هو ده؟

- آه يا باشا هو.

- معاك صورة من بطاقته أو اتأكدت منها بنفسك؟

- لا حضرتك إحنا هنا مابنعملش كده.

التفت له (طه) بحدة, وسأله موبخًا:

- إيه الهبل اللي بتقوله ده؟! أعرف منين إن ده اسمه أنا؟!.

- ما حضرتك (الدكتورة) كانت عايزة تحافظ على سرية العملاء, فقررت

مفيش بطايق علشان لو حد حب يستخدم اسم مستعار.

- لا برافو عليكم!... حجز إزاي؟!!

- بالتليفون حضرتك من يومين.

- وحجز بنفسه؟

حاول (محمود) التذكر, فصدمته الإجابة, قال متحمسًا:

- لا حضرتك دي كانت واحدة ست قالت لي أحجزله آخر معاد علشان شغله... كمان حضرتك أنا أظن إنه كان نفس الصوت اللي كلمني أمبارح!!

ضحك (طه) ساخرًا, وقال:

- ابتدينا نلوِّش, معقول فاكر الصوت؟!

- حضرتك أنا أظن يعني مش متأكد...

دخل (إسلام) مسرعًا, فقاطع (طه) (محمود) قائلًا لـ (إسلام):

- انت فين بنادي عليك بقالي ساعة؟!

- معلش يا باشا كنت بجيب (اللاب) من العربية وفرغت عليه فيديو المراقبة.

- وجبته؟ -

أيوه اتفضل حضرتك واقف على مريض إمبارح الأخير, مفيش حاجة باينة منه خالص, كان مدي ضهره للكاميرا وهو داخل وهو خارج.

وضع (إسلام) اللاب توب أمام (طه) على المكتب, فأمره (طه):

- خدلي الرقم اللي اتصل بالمعلم امبارح وخليه يطلع لك الرقم اللي حجزوا بيه وهات لي آخرهم, تتأكد بنفسك إن الواد ده -مشيرًا لـ (محمود)- كان في المركز إمبارح وإن هو بنفسه اللي بياخد أمه كل مرة, يبات في الحجز النهارده مايروَّحش بيته غير لما نشوف إيه حكايته..

قاطعه (محمود) يترجَّاه:

- ليه يا باشا بس؟! والله ماليش دعوة بحاجة أنا غلبان!!...
- بس يلا مش عايز كلام كتير بدال ما أعلقك هاتتصعبن لي؟!.. (إسلام) بيه... الحاجات دي تكون عندي في أسرع وقت من فضلك.

- تمام يافندم.

-كمان عايز تقرير كامل عنها وعن أهلها وعن صحابها, محدش سأل عليها أو بلغ عن غيابها؟!

- لأ حضرتك لسه.

- تمام اتفضل، وخده معاك أنا خلَّصت.

ترجى (محمود) (طه) مرةً أخرى, أمسك به (إسلام) من ذراعه وقال بهدوء:

- من فضلك اتفضل معايا ماتخفش.

بينما ظل (طه) جالسًا يتفحص فيديو المراقبة غير مبالٍ به.

ترك (طه) اللاب توب بعد أن تأكد أنَّ كلام (إسلام) كان صحيحًا, دخل الغرفة الداخلية حيث أطباء الطب الشرعي يفحصون كل شبرٍ في الغرفة بعنايةٍ شديدة, استقبله أحد الأطباء يصافحه بعد أن خلع قفازه المطاطي, أنزل كمامته الطبية ليكشف عن وجهه العجوز المجعد, ابتسم لـ (طه) وسأله عن حاله فقد عملا سويًّا في الكثير من القضايا حتى أصبحا يعرفان ويثقان ببعضهما, قال له (طه):

- اللي قتل كان لابس جوانتي, بان في الفيديو, ماتضيعوش وقتكم في البصمات على العفش وركز على اللزق والسكِّينة.

- تمام يا (طه) بيه.

- بعد إذنك هعاين بنفسي... ياريت التقرير يطلع بسرعة.
- أكيد حضرتك.

أعطى الطبيب قفازين مطاطيين لـ (طه), ثم أمر رجاله وخرجوا جميعًا من الغرفة ليتركوا (طه) يعمل.

ارتدي القفاز بينما يقترب من الجثة, تلتقط أنفه بقايا رائحة عطر ممزوجة برائحة تعفُّن, ثم ميزت أنفه رائحةً أخرى, رائحة قيءٍ, بحث بعينيه حتى وجد سلة قمامةٍ صغيرة بين المكتب والمقعد المقيدة به الضحية, نظر بداخلها فوجدها ممتلئةً بالقيء, تفحص الدكتورة عن قرب, وجهها شاحبٌ مشدودٌ متخشب, عليه كدمةً حديثة من الناحية اليسرى ودماءٌ متجمدة على شفتها, شعرها مبعثرٌ وملابسها غير مهندمة, يبدوعليها أنها كانت تحاول التحرر, الشريط اللاصق مشدود بقوةٍ على ساعديها, لا تزال ترتدي ساعة يدها الفضية مرفوعة لأعلى ساعدها, وحليها الذهبية-سلسلتها وأساورها وقرطها- أزاح القميص عن الجرح بأطراف أصابعه, السكين مغروس نصلها بالكامل داخل صدرها, لا يبدو على الغرفة آثار عراك, رتَّب (طه) أفكاره...

مَن قتلها أيمن من زاوية اللكمة, وهو قوي وغاضب فلم تستطع مقاومته لأن باقي الغرفة مرتبة.. يبدو أنه يحمل لها ضغينةً شديدة فقد ضغط على السكين حتى نهايته, والسكين كان معتدلًا, لابد أنه كسر لها ضلعًا, إذن فهي جريمة انتقامية لا للسرقة, عذَّبها القاتل ليثأر من شيء ثم قتلها, هذا يبعد (محمود) من منتصف دائرة الشك، فلا مصلحة له؛ حتى ينكشف شيء يربطه, من فعلها يعلم نظام المكان في الحجز والنظام ويعلم وجود

كاميرا مراقبةٍ واحدة فقط وزاويتها, إذن فقد دخل العيادة سابقًا هو أو شخص يساعده, ربما تلك المرأة التي كلمت (محمود), مما يعني أنها غالبا كانت تنتظره خارج العيادة تراقب بينما ينفذ هو جريمته في الداخل...

خلع (طه) القفاز الملوث بالدماء, أخرج هاتفه واتصل (بإسلام), ردَّ عليه, فقال (طه):

- اسمعني كويس وركز معايا, (محمود) اللي معاك ده يفضل في الحجز لحد ما آجي لك كمان شوية, وتستعجل على تقرير (الدكتورة) وتستدعي لي أي حد تبعها ضروري, افتحوا تليفونها وشوف لو فيه أي رسائل تهديد, اللي قتلها كان بينتقم.

- تمام يا باشا.

أغلق (طه) الهاتف وأعاده إلى جيبه, ألقى نظرةً أخيرة, ثم خرج من الغرفة وتوجه للطبيب العجوز المنتظر في مكان الاستقبال, قال له:

- فيه جوه ترجيع أظن إنه بتاع القاتل.

-
أكيد شفته حضرتك ماتقلقش, هاته انت وهنأكد لك إنه هو من الـ (DNA) بتاعه...

ضحك الطبيب بينما ابتسم (طه) ابتسامةً فاترة, تركه وذهب لمكتب

الاستقبال, نادى أحد العساكر فأتى مسرعًا, أمره بحزم:

- الورق والدفاتر كلها اللي هنا في العيادة تتلم وتروح مكتب (إسلام) بيه, واللاب ده كمان.. تمام؟

- تمام يافندم.

- روح شوف زميلك ركن العربية فين خليه يجيبها.

ركب (طه) سيارته, وانطلق - في الاتجاه الذي سار فيه (أحمد) بعد خروجه- يقود ببطء, يتفحص المباني بحثًا عن كاميرات مراقبة أخرى, انعطف ودار حول البيت فلم يجد شيئًا, أسرع في النهاية متجهًا إلى القسم حيث (إسلام) و(محمود) ينتظرانه.

****

١٤

جلس (طه) أمام مكتب (إسلام) على مقعد الزائرين, يكره العمل من مكتبه, يترك العمل الورقي والروتيني لـ (إسلام) شريكه ومساعده وتلميذه الشاب المنظَّم, فيدير البحث من مكتبه حيث التقارير والسجلات والأوراق, يستمع لتقرير (إسلام) عن حياة (الدكتورة):

-عندها ٢٨ سنة, أصلًا من الإسكندرية ومتخرجة من تجارة, جات مع والدتها من أول ما اتخرَّجت علشان أبوها وأمها اتطلقوا وكان فيه بينهم قواضي ومشاكل كتير, كانت شغالة في بنك في الأول, وبعدين سابته وفتحت العيادة دي, هي مش عيادة ولا حاجة, هي مجرد بتقول للناس رأيها في شكلهم ولبسهم والحاجات دي وبتاخد منهم فلوس, مش متجوزة ولا كانت, وأمها ماتت من تلات سنين تقريبًا, دخلنا على الموبايل بتاعها على الـ (social media) كل صورها في سهرات ومقضيَّاها خالص, عايشة لوحدها من ساعة ما أمها ماتت وأبوها لسه عايش في إسكندرية ومتجوز هناك، المكالمات بينهم قليلة جدًا, لما رحنا على بيتها المتسجل هنا في القاهرة جارتها اللي في الشقة اللي قدمها طلعت لنا, طلعت صاحبتها الأنتيم, بلغناها اللي حصل وعملنالها استدعاء علشان حضرتك تتكلم معاها بنفسك, وكلمنا

أبوها يحضر علشان التحقيق وعلشان يستلم جثتها..

- حلو أوي, جارتها هنا؟

- أيوه يا باشا واقفة بره.

- طيب دخلهالي.

دخلت مرتاعة مرتبكةً, لم يخف على الرجلان جمالها, تشبه (الدكتورة) في نمط هيئتها الجريء المتحرر نوعًا ما, شعر قصير مموج أسود أطرافه صفراء, حلق مستدير ذهبي معلق في أنفها, بنطال أسود ضيق رياضي به شريحتين شفافتين على جانبي ساقيها, وسترة خضراء منتفخة مغلقة بأحكام لتخفي ما ترتديه أسفلها, تمسح دموعها قبل أن تسيل فتفسد مورِّد خديها, ثم تمسح أنفها الدقيقة, سألت بلهفةٍ لا تخفي دلالها ورقتها:

- إيه اللي حصل؟

تفرَّس فيها (طه) من رأسها إلى حذائها الرياضي الباهظ, يلتهمها بعينيه الجريئتين ببجاحة, أشار لها (إسلام) أن تجلس على المقعد المقابل لـ (طه) وقال لها:

- اتفضلي يا مدام اقعدي.

لاحظت نظرات (طه) تخترقها, لم تشعر بالراحة للجلوس أمامه.. عيناه

تتفحصانها, رمقته باستنكارٍ بينما تجلس مرتبكةً لا تجد مفرًا منه, تعطيه جانبها كي تواجه (إسلام), محتضنة حقيبتها الصغيرة وواضعة ساقًا على الأخرى, لاحظ (طه) امتعاضها فعاد مستندًا بظهره للوراء ووضع كعبه الأيمن علي ركبته اليسرى في تعالٍ, وقال لها ليلفت انتباهها له مرةً أخرى:

- أنا (طه النجار) رئيس مباحث (.....), أنا المسؤول عن التحقيق, أنا عايزك تطمئني هنجيب اللي عملها يعني هنجيبه، بس الأول أنا محتاجك تهدي وتركزي معايا، والأهم تجاوبيني بكل صراحة.

تحولت له بنظرها أولًا، ثم بجسدها واهتمامها, أومأت أن نعم في ترددٍ, أكمل طه:

- حلو أوي...هي كانت قريبة ليكي؟

- آه يُعتبر أنا أقرب حد ليها.

- طيب هل كان فيه مشاكل بينها وبين حد آخر فترة دي؟

- بص حضرتك هيا بتتخانق كتير شوية، بس هي علشان اتربت إنها تبقي ناشفة فكلامها وآراءها بيبقوا صعبين شوية وبيزعلوا ناس منها، وهي بتفضل متمسكة برأيها ومابتصالحش حد, بس هي كلها خناقات عبيطة متخليش حد يأذيها يدوب يكرهوها أو يبعدوا عنها وخلاص.

- تقدري تتهمي حد معين شاكة فيه؟

- لا خالص كل الحوارات دي كانت من فترة ودلوقتي دايرتنا صغيرة مافيهاش مشاكل.

- ومين بقي دايرتكم دي؟

- أنا وهي وجوزي وبنتين وولدين صحابنا.

- هل كانت على علاقة مع حد؟

- لا هي بتحب تكون (single).

- ولا كان فيه؟

- كان فيه بس كله هبل، وآخر حاجة خلصت من سنة تقريبًا.

- طيب وأهلها؟ -

ماعرفش حد منهم شخصيًا ولا تفاصيل عنهم, بس هي قالت لي باباها بيكلمها كل فترة يطمئن عليها والدنيا بينهم هادية مفيش مشاكل, طالما مابتطلبش منه فلوس خلاص!. –

تمام جدًا, بعد إذنك هنحتاج بقية الشلة ناخذ أقوالهم... تقدري تتفضلي دلوقتي وهانكلمك لو فيه جديد.

بكت فلم تستطع منع دموعها من الانهمار بغزارة تفسد مسحوق تجميلها, سألته بين شهقاتها:

- هو إحنا ممكن نستلمها امتى علشان الدفنة؟ -

لا لسه شوية، الطب الشرعي هو اللي هيقرر, هنبلغ حضراتكم.

تنقلت بين (طه) و(إسلام) بنظرها في تساؤل, أشار (طه) للباب بابتسامةٍ طفيفة وإيماءة مطمئنة, قامت محتضنةً حقيبتها بيد, تمسح دموعها باليد الأخرى, واتجهت إلى الباب, يحدق (طه) في مؤخرتها البارزة من البنطال وساقيها حتى خرجت من الغرفة!!

عاد بتركيزه ونظره لـ (إسلام) الذي جاهد كي لا يضحك على مراهقة (طه)!!, قال (طه):

- مفيش حاجة اتسرقت من الجثة؛ معنى كده إنها اتقتلت انتقام, كل حاجة كانت متخططة, وبعد كلام صاحبتها أظن اللي عملها حد ليه علاقة بالعيادة خصوصًا إنها اتقتلت هناك, لو كان حد من معارفها كان قتلها في بيتها أو استدرجها في أي مكان بعيد وقتلها, هاتلي الواد (محمود).

دفع العسكري (محمود) داخل غرفة المكتب, وقف أمام (طه) و(إسلام) مطأطئ رأسه, مظهره بائس وحلته متسخة, رابطة عنقه واسعة, أول

زرين من قميصه مفتوحان, شعره مبعثر ووجهه متعب, قال له (طه):

- بص يا ابني لو عايز تروَّح وماتتحولش للنيابة وتتبهدل, فوق كده وركز معايا.

- أنا تحت أمر حضرتك.

ردَّ (محمود) مستسلمًا لا ينظر إلا أسفله, قال له (طه) بلهجةٍ أقل حدة:

- حلو.. تعالى أقعد قدامي هنا... (إسلام) بيه؛ خلي حد يجيب له ميَّه وحاجه يشربها بعد إذن معاليك.

رد (إسلام):

- حاضر يافندم.

جلس (محمود) أمام (طه) في تردد, يقلب (طه) في ملف (الدكتورة) في صمت, حتى دخل العسكري, وضع الماء والشاي على المكتب وخرج, أغلق (طه) الملف أخيرًا, قال لـ (محمود) في ودٍّ لم يعتده:

- اشرب يا (محمود) وفوق لي كده.

- حاضر يا باشا!.

شرب (محمود) منصاعًا للأمر, بينما أكمل (طه):

- بص يابني من الآخر كده, واضح إن اللي عملها عملها علشان ينتقم من حاجة, وانت بالنسبالي أبسط وأتفه كتير من ده, اللي عملها احتمال كبير أوي يكون واحد من العيانين بتوعكم, عايزك تركز كده وتفتكرلي لو حد عمل مشاكل أو هددها مثلًا حاجة كده يعني.

فكر (محمود) في كل وجهٍ غاضب خرج من غرفة (الدكتورة), ولكن من منهم قد يكون فعلها, شعر بالضغط يشل تفكيره, لا يزال يهاب (طه) ولا يريد إغضابه, ساعات قليلة في الحجز كانت كافية لتجعله يفعل أي شيءٍ كي لا يعود له, تكفيه نظرات المحتجزين الآخرين المتوعدة وهيئتهم المخيفة, لولا توصية (إسلام) بيه عليه لما ظل سليمًا معافىً, لا يريد المراهنة على انصياعهم لأوامر (إسلام) في الليل!.. ركز وهدأ وفكر بتمعن, فتذكره فجأة, لا يعلم كيف لم يفكر فيه من البداية؟! قال بحماسة:

- حضرتك فيه واحد كده, كان بييجي لنا كتير أكتر من الطبيعي, وآخر مرة ليه خرج متعصب أوي, جيت أوقفه علشان فلوس الجلسة زقّني، خرجت وراه ضربني, وسابنا في الشارع ومشي!.

اعتدل (طه) في جلسته, معجبًا بما سمع, فسأله:

- اسمه إيه.. فاكره؟.. بس حتى لو فاكره ممكن يكون مستعار برضه!.

- حضرتك اسمه (تامر سالم)، واسمه حقيقي... أنا متأكد لأني دورت عليه على الـ (Facebook) ولقيته, بصراحه كنت عايز آخد حقي منه بس في الآخر

خُفت.. أنا غلبان, وهو شكله كان تعبان خالص يا باشا مخُّه رايح, دي حتي صورته اللي علي الـ (Facebook) غريبة, تحسه متوحد تحسه متصورها بالعافية!.

- أخرج (طه) هاتفه وفتحه وأعطاه لـ (محمود) وهو يأمره: طلَّع لي صفحته.

أخذ (محمود) الهاتف يبحث عن (تامر), نظر (طه) لـ (إسلام) يبتسم له في تفاؤل, قال (محمود):

- آهو يا باشا.

وأعطى الهاتف لـ (طه) مفتوحًا على صفحة (facebook), في منتصفها دائرة فيها صورة (تامر) التي كانت خلفية لهاتف (أحمد) عندما أراها لـ (الدكتورة), قلَّب (طه) بحماسةٍ في الهاتف, ثم قال لـ (إسلام):

- ماعندوش صور خالص غير واحدة!.. أنا عايز كل حاجة عن الواد ده.

****

١٧

جلس (طه) يستريح بعد يومٍ طويل، يتناول وجبةً كبيرة من البيض والجبن القريش، رغم كونها وجبته الخامسة في اليوم، بيته صغير يشعرك بالفخامة بألوانه البسيطة وأثاثه العصري رغم العملية، يعيش فيه وحيدًا بعد أن طلَّق زوجته فترك لها وأولاده الثلاثة منها بيت زواجه، ربما هو قاسي الطباع، ربما عنيد، ربما مدمن على عمله، ولكنه لم يكن من الطبع الذي سيدخل في صراع مع زوجته لمجرد طلاقهما، وهكذا أصبح هو وزوجته السابقة مجرد أصدقاء، يتحدثان بين الحين والآخر، يزورها هي وأولاده، يلبي كل طلباتهم ثم يعود ليعيش وحيدًا، يعمل أكثر، يتمرن أكثر، ويأكل أكثر، فلا يملأ الفراغ الشاغر في حياته!.

أنهى طعامه، جمع الأطباق كلها في كومةٍ واحدةٍ وتركها على المسند الرخامي الفاصل بين صالة الاستقبال والمطبخ العصري، عاد لأريكته الوثيرة الصفراء، أشعل التلفاز، لا يشاهده وإنما يؤنس صوته وحدته، جلس يقلب في هاتفه وهو يفكِّر في تفاصيل القضية مرةً تلو الأخرى، حينها اتصل به (إسلام)، أجابه فأتاه صوته من الطرف الآخر:

- (طه) بيه، عندي لحضرتك خبر مهم!! .

- قول يا (إسلام) خلصت تقرير (تامر)؟!

- مش كله يا فندم، بس أنا اكتشفت إنه انتحر من سبع شهور! .

- بتقول إيه؟!!!

- زي ما بقول لحضرتك كده، وراجعت سجلات العيادة، طلع كان فيها قبل انتحاره بيومين، ودي آخر مرة اللي (محمود) قال لنا عليها لما ضربه، كمان راجعت قبل كده ، لقيته زار العيادة سبع مرات، وده كل اللي لقيته..

تحمس (طه) ؛ فإن كان انتحر بعد زيارته للعيادة بأيام، إذن فهو قد فعلها غالبًا بشيءٍ قالته (الدكتورة) أو فعلته، مما يعطي سببًا قويًا لأحد أقاربه أو أصدقائه لتعذيب (الدكتورة) ثم قتلها، شعر (طه) بأنه قريبٌ من القاتل، تذكر (إسلام) الذي مازال على الطرف الآخر، استجمع أفكاره، ثم قال:

- بكرة الصبح يكون على مكتبي كل حاجة عن عيلته وقرايبه وصحابه، خصوصًا الرجالة اللي بتنتطبق عليهم المواصفات، وبرضه عايز حد يجيب لي قرار (محمود) وتتأكد لي بنفسك إن كان مع أمه يومها في المركز زي ما بيقول، تمام؟

- تمام يا باشا اعتبره حصل.

أغلق (طه) الهاتف ووضعه على زجاج الطاولة الخشبية المزخرفة أمامه،

أراح ظهره إلى الوراء بينما يتنهد في تعب، سحب غطاءً -ملقىً بجانبه- فوقه، هدأ واستكان عندما شعر بقرب انتهاء القضية، سيحافظ على سمعته المثالية مرة أخرى، بل ربما سيزيدها بريقًا بعد إنهاء القضية في وقتٍ مثالي، ابتسم في رضًا وأغلق عينيه, ليغرق في أحلامه...

*****

وقف العسكري لـ (طه) أمام باب مكتب (إسلام) يحييه بانضباط, كان الوقت مازال باكرًا، لم يستطع كبح حماسه أكثر من ذلك، راهن نفسه على التزام (إسلام) وانضباطه، يذكره بنفسه كثيرًا في همته وذكائه، فأحب العمل معه في كل قضيةٍ، ابتسم عندما أخبره العسكري أنَّ (إسلام) بالداخل، فقد كسب الرهان، أدار المقبض الحديدي البارد، دفع الباب الخشبي ودخل، وقف (إسلام) يحييه، فأشار له أن يجلس وهو يقول:

- اقعد اقعد يا (إسلام).. إيه الأخبار طمِّني.

- مش هتصدق يا باشا، عنده أخ واحد وأخوه مطابق لكل المواصفات اللي وصفها (محمود) بالمللي!!.. أنا طبعت صورته وكلمت (محمود) استدعيته أهو، أخوه ده بقي خاطب، ودخلت على صفحته على الفيسبوك

والانستجرام كل صورة معاها، شكلهم قريبين جدًا من بعض، ومش بعيد تكون هي اللي كلمت (محمود).

- الكلام ده حلو أوي أوي!! طب نمرة التليفون ماوصلتكش لحاجة؟

- لا يا باشا، ولسه هاتقصى على (محمود) .

- ابعت أي حد ماتروحش بنفسك، مش فاضيين، دلوقتي ناقصنا حاجة مهمة، إزاي عاينوا العيادة من جوه؟!

- أنا جهزت فيديوهات المراقبة من ساعة ما أخوه (تامر) ده انتحر .

نظر إليه (طه) بإعجاب، يرى مستواه يتحسن يومًا بعد يوم، قال له بفخر:

- برافو عليك يا (إسلام) والله!! .

- تربيتك يا باشا!!.. بس الخوف إنه يكون اللي عاين حد غيرهم.

- ما اظنش يا (إسلام) لا، هيخافوا يكلموا حد غيرهم عن الموضوع، هم مش عصابة، و بما إن (محمود) مشافش أخوه ده قبل كده، يبقى أكيد خطيبته، صحيح اسمهم إيه العيال دي؟!

- (أحمد) و (نيرمين) يا باشا

- يا حبايبي!!.. وعرفت لي عناوينهم وكل حاجة؟

- كله جاهز يا باشا، وطلبت تتبُّع لنمر تليفوناتهم اللي متسجلة عندنا علشان نعرف كانوا فين إمبارح كمان.

مرة أخرى تفوق (إسلام) على رئيسه، ضحك (طه)، قليلًا ما يراه (إسلام) يضحك من قلبه هكذا، حتى إنه ضحك هو الآخر، ثم قال (طه):

- والله وكبرت وشكلك هاتقَّعدني في البيت!!.

- لا يا باشا عيب!!، أنا تلميذك .

- ماشي يا عم المطبلاتي!! يلا نراجع الفيديوهات على ما (محمود) بيه يوصل! كنا حبسنا أمه وخلصنا، و نطلعه من الحجز وقت ما نحب.

عاد (طه) لطبيعته القاسية الساخرة فردَّ عليه (إسلام):

- صِعِب عليا يا باشا، وشكله غلبان مالوش في حاجة.

- خليك انت حنيِّن كده!! يلا نشوف شغلنا .

لم يكن البحث مهمةً سهلة، ولم يثق (طه) في أحد ليتولى هذه المهمة، نقر أحدهم بقوةٍ على الباب، دخل العسكري، أدى التحية العسكرية، وأعلن عن انتظار (محمود) في الخارج، أمره (إسلام) أن يُدخله على الفور، دخل وحيَّاهم (محمود) في حياء، وظل واقفًا حتى أذن له (إسلام) بالجلوس،

تفحَّصه (طه)، ملابسه الرخيصة البالية لا تشبه الحلة الرسمية التي ارتداها قبلها بيومٍ، وجهه يظهر عليه التعب، عيناه منتفختان، يفضحان بكاءه طوال الليل وقلة نومه، لم ينتظر (طه) وأعطاه صورةً مطبوعة تعود إلى (أحمد), وسأله:

- هو ده؟

تفحص (محمود) الصورة، بدا وكأنه استعاد صحته، اعتدل في جلسته وهو يصيح قائلًا:

- أيوه هو حضرتك.. هو!!.

تبادل (إسلام) و(طه) النظرات والابتسامات، ثم أخذ (طه) صورة (نيرمين) وسأله:

- ودي، شوفتها قبل كده؟

تفحَّص (محمود) الورقة المطبوع عليها صورة (نيرمين)، تأمَّل فيها، يشعر بأنها مألوفة، ولكنه لا يتذكر، ملامحها جميلة ولكنها تقليدية بعض الشيء، قال مستسلمًا لحيرته:

- بصرحة مش فاكر، مش متأكد.

- ركِّز يا (محمود)، إحنا شاكِّين إنها جات العيادة علشان تعاين.

- لا يا باشا والله مش فاكرها فعلًا.

- تمام، استني برَّه وماتروَّحش .

انتظر (إسلام) حتى خرج (محمود)، ثم سأل (طه):

- نجهز بالقوة ونتحرك على بيته؟

- لأ مش دلوقتي، لما نلاقي اللي يربط البنت بيه، عايز قضية كاملة تربطهم هما الاتنين، استعجل تقرير تتبع تحركاتهم، ويلا نكمِّل تفريغ الفيديوهات.

طال البحث، وجه ثم الآخر يدخل العيادة ويخرج، بعضها يظهر بسهولة، والبعض الآخر يحتاج لتدقيقٍ وتقريبٍ وتنقية، حتى وجدها (طه)، واضحة، ملامحها لا تترك مجالًا للشك، وقفت أمام العيادة تتلفت حولها، حتى رأت الكاميرا، حدَّقت بها للحظاتٍ قبل أن تدخل، أصبح كل شيءٍ واضحًا، وضع (طه) الحاسب الآلي دون التفوه بكلمةٍ على المكتب، تفحَّصه (إسلام) للحظةٍ ثم ابتسم وقال:

- قفشناهم!!

- قفشناهم، بس هما ممكن يقولوا إنها كانت بتكشف عادي مالهاش دعوة،

صدفة.

- صح، وهو ممكن يقول إن (محمود) بيكدب علشان يهرب، ويلبِّسه هو، وهو ماظهرش في الفيديو.

- بس المعلم عمل غلطة كبيرة أوي، ماقدرش يستحمل المنظر، ورجَّع، وسابه وخلع، المهم دلوقتي نربطها هي بالقضية, يعني هنقدر نربطه بالموضوع بالـ ((dna...

نقر العسكري ليقطع كلامهم، دخل وأعطى (إسلام) بضعة أوراق، تفحصها (إسلام) ثم قال محدثًا (طه):

- ده تقرير التتبُّع لأرقامهم، الشرايح كانت في البيت اللي متسجل إنه بيت (أحمد)، وبعدين رقم (نيرمين) خطيبته، اتحرك من بيته بالليل متأخر، ورجع على بيتها على طول، وهنا أسماءهم وعناوينهم وسِجل مكالماتهم، مفيش فيه رقم (محمود) أو العيادة.

ألقى (إسلام) الورق في خيبة أمل، تأفَّف، وأراح ظهره إلى الوراء، فكَّر (طه) في صمت ثم عاد يقول:

- كل الناس دلوقتي بقت عارفة إننا بنتتبع الشرايح، وهم أذكياء وعاملين خطة، حاجة من الاتنين؛ يا إما سابوا الشرايح في البيت، وخدوا موبايلاتهم،

وساعتها أول مانعرف السيريال هنعرف نجيب تحركاتهم، أو سابوا الموبايلات تمامًا وساعتها الخط ده هيبقى مقفول، وفي كل الأحوال لازم (محمود) يتعرَّف على البنت خطيبته علشان نعرف نثبت مساعدتها لـ (أحمد) هي كمان.. جهِّز كل التصاريح، مش عايزين أي غلطة في الإجراءات، هنقبض عليهم هما الاتنين.

****

جلست نيرمين بجوار أحمد لا تعرف ما تفعله كي يخرج من حالته تلك، لم تسأله عما فعل بالدكتورة، ولكنها توقعت من قوة تحوُّله منذ خرج من العيادة ذاك اليوم، لا يتحدث على الإطلاق، ينصاع لأوامرها عندما تخبره أن يبدل ملابسه أو يأكل، ثم يعود لجلسته متكورًا على نفسه يرتعش حتى يغطَّ في نومٍ قصير، يستيقظ منه منتفضًا يصيح أو يلوح بيديه يضرب الهواء، يبكي ثم يهدأ ويعود لهيامه من جديد، تتركه كل ليلةٍ رغمًا عنها لتعود لعراكها المعتاد مع والدتها، لم تعد دموعها تؤثر، لم تعد تستطيع إيجاد كذبات أخرى أو أعذار تصدَّق، أصبحت كاذبةً وحزينة ومتآمرة مخططة لشيء لم تعلم نهايته، ولا تزال لا تريد أن تعرف نهايته.

علمت بأنهم قريبون، تحتاج لأحمد القوي كي تنجح خطتها، لم تعد

تستطيع رؤيته هكذا، شدته من ذراعه بقوة فقام معها معتدلًا، لا يزال ينظر للَّاشيء أمامه، ربتت على ظهره في حنان، وقالت:

-أحمد ركِّز معايا هما كلمتين ونخلص، هما أكيد هيشكوا فيك لما يعرفوا انتحار تامر، بس مش هيعرفوا يثبتوا علينا حاجة، اجمد علشان خاطري، كل اللي هتقوله إنك ماتعرفش حاجة عنها وتامر محكاش لك إنه كان بيروحلها، مذكرات تامر أنا حرقتها والهدوم اللي كنت لابسها رمتها كلها، مفيش بصمات مافيش كاميرا صوَّرتك، لو تتبعوا أرقامنا إحنا كنا هنا في البيت، وحتى لو وصلوا لإني كنت عند الدكتورة هقولهم أي حجة وإنك ماتعرفش، أوعى تغلط يا أحمد هما أكيد هايبجوا.. أرجوك!

لم يبد على أحمد أنه يسمعها، لم تحتج منه سوى ان يعود لقوته حتي ينتهي التحقيق ثم فليفعل ما يشاء، شدَّته من كمه وهزَّته بعد أن فاض كيلها منه وهي تعنِّفه:

-أحمد ركز معايا بقى وفوق شوية.. مش وقته اللي بتعمله ده فوق بقى!!

نظر لها أحمد أخيرًا، هدأت لعله يقول شيئًا، طال انتظارها فسألته:

- أحمد انت فهمت اللي قلتهولك؟

لا تزال تري تيهة عينيه، ولكنه كسر صمته أخيرًا ليقول لها:

- مافيش فايدة من اللي بتقوليه ده، أنا رجَّعت هناك يعني هيعرفوا إن أنا اللي عملتها!..

- انت بتقول إيه؟! هو أصلًا الترجيع ممكن يكون فيه dna؟!

- أيوه فيه، أنا لما جات في دماغي مرة واحدة امبارح دورت وفيه

- أكيد فيه حل... هنتصرف هنقول أي حاجة...

-مفيش حل!

قاطع أحمد كلماتها المترددة، وأكمل:

- انتي مالكيش دعوة بالموضوع، أنا هشيله كله لوحدي...

- انت بتقول إيه بس؟!

بدأت دموعها تنهمر، الهلع يتراكم ويتزايد في صوتها، فأكمل أحمد:

- أنا اللي عملت كل حاجة، انتي متعرفيش أنا رُحت فين يوم الجريمة.. سيبت لك الموبايل ونزلت مشوار ورجعت، إيه اللي حصل فيه ماتعرفيش.

خفق قلب نيرمين بقوة، عقلها يجد مئات الحلول ويجدها غير مناسبة في آنٍ واحد، كل التفاصيل تأتيها دفعةً واحدة، بحثت حولها عن حقيبتها،

رأتها على المقعد المقابل لهم، قامت وجلبتها وهي تقول لأحمد:

- قوم معايا لازم نهربك دلوقتي حالًا.. يلا.. أحمد قوم معايا يلا مفيش وقت يا أحمد

بدأت دموعها تنهمر، أكملت مستعطفة:

- يا أحمد مش هاقدر أسيبك قوم معايا..

ولكن أحمد كان له رأي آخر، علم أنَّ أمره انتهى، لم يرد توريطها أكثر، كما أنه شعر بأنه لن يستطيع الحياة بعد ما فعل، وبعد ما رأى، ناهيك عن الهروب والقتال من أجل حياته، ربما في الماضي كان يستطيع؛ أما الآن فانتحار أخيه الوحيد وقتله للدكتورة أصبحا يثقلانه، يثبتانه في مكانه، يطارده شبحاهما في منامه واستيقاظه، يلومانه، تامر متعفنٌ يلومه على طريقته وإهماله، والدكتورة تنزف دماءً من صدرها دون توقف، تلومه على تعذيبه لها وإنهاء حياتها، علم أنه لن يحتمل طيفيهما كثيرًا، ولن يعود لسابق عهده مهما حاول، فقرر بكل بساطة أن يستسلم.

اقتربت منه نيرمين تترجاه باكيةً ثم جادةً ثم حادة آمرة، لا يرد عليها ولا ينظر لها، فاض كيلها وانهارت كل الدعامات التي ظلت تبنيها كل ليلةٍ لتحمل همِّه وهمها، صرخت فيه كالأطفال وشدته وضربته، قاطع نوبتها قرعٌ عنيف

على الباب، تجمدت أوصالها، تعلم ما ينتظرها، شعرت بالدماء تتبخر من عروقها، استمر القرع قويًا متصلًا، عدَّلت ملابسها ثم ملابس أحمد التي عبثت بها، ركضت للباب بينما تجفف وجهها، فتحت لتجد أمامها رجلًا قصيرًا يقاربها في الطول، وسيمًا أصلع، مفتول العضلات تضغط عضلاته على حلته الرمادية الداكنة، وراءه الكثير من الرجال بعضهم بملابس شرطة رسميةٍ وبعضهم بملابس ملكية، لم تظهر عليها المفاجأة وإنما التوتر..

حدَّق طه مباشرةً في عينيها ينظر لأعماقها، ثوانٍ طوال عليها شعرت به يخترقها، قال دون أن يرمش له جفن:

- أما موضوع التتبُّع ده مسهل شغلنا بطريقه يا إسلام بيه!!.. مع إن فيه ناس بتحاول تصيع علينا به!!

فرد إسلام مؤمنًا:

- معاك حق يافندم!

حافظ طه على جديته رغم سعادةٍ عامرة تجتاح صدره، سأل نيرمين:

- أستاذة نيرمين عبد الرحمن؟

- أيوه حضرتك فيه حاجة؟!

- حضرِتك مقبوض عليكي بتهمة القتل العمد

-قتل؟!!

ربما خمَّنت نيرمين ما فعله أحمد، ولكن وقع الكلمة مؤكدةً من طه كان قويًا عليها، فخرجت منها بتلقائية هَلِعة ..

أزاحها طه عن طريقه ودخل البيت، ليمسك بها إسلام برفق بعده، سأل طه بثقةٍ مستفزة:

- أحمد بيه فين؟!

فصرخت به نيرمين خلفه بحرقةٍ، بينما تدفع إسلام محاولةً التحرُّر منه:

- مالكش دعوه بِيه إحنا ماعملناش حاجة.

سمع صراخها أحمد فعاد لرشده، نظر إليها يستفيق من عالمه على الواقع المؤلم، رآها تدفع إسلام - الذي أصبح قابضًا على ذراعها يضع عليها الأغلال- وتصرخ فيه أن يتركها، اندفع أحمد يركض ناحيتهم كثورٍ مجروح غاضب، بجسده الضحم ووجهه الجاد المخيف، أخذ طه خطوةً للجانب ليقف أمامه مباشرةً، حاول أحمد دفعه، لو أنه أصاب طه بفارق الحجم بينهما لأطاح به، ولكن طه كان أذكى وأسرع، ضرب ذراعيه بقوةٍ من الأسفل ليطيح بهما للأعلى، فقد أحمد توازنه وتعثر للأمام، انحنى طه قليلًا بخفةٍ

ليصدم ضلوع أحمد بكتفه المكتل بالعضلات، رفعه رغم ثقله بسهولةٍ.. أماله، ثم ضرب به الأرض لترتج أسفلهم، وسقط فوقه يثبّته، أسرع العساكر وأمسكوا بأحمد بينما يُلبسونه الأغلال، نائم على صدره وذراعاه مثبتان وراء ظهره، ينظر لنيرمين وتنظر له، تبكي وتصرخ وتقاوم وتتلوى كي تذهب له، فما كان منه إلا أن ابتسم لها ابتسامته الراضية المطمئنة التي تحبها منه.. ولا يبتسمها إلا لها...

شارك سطورك مع العالم

01122380443